اقرأ

محمود بن الشريف

الدعاء في القرآن

تصدر أول كل شهر
[٢٨٠] ١٥ يناير - ١٩٨٥

رئيس التحرير **أنيس منصور**

محمود بن الشريف

الدعاء في القرآن

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

من آية ٦٠ من سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالَمِينَ [٢] الرَّحْمَنِ الرَّحِيم [٣] مَالِكِ يوْمِ الدِّينِ [٤] إيَّاك نَعْبُدُ وإيَّاك نَسْتَعِينُ [٥] اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ [٦] صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّين [٧] .

الفاتحة :

- هى دعاء المسلم وورده اليومى يردده سبعَ عشرةَ مرةً أو أكثر فى اليوم والليلة .
- هى ترنيمة المؤمن وخبزه الإيمانىّ الذى يقتات به فى مراحه ومغداه ، وفى صباحه ومساه ، وفى فرضه ونفله وفى تهجده وتعبده .
- هى باقة إلهية ضمت ألواناً عدة : من مفاهيم العقيدة . وأهداف الدعوة . وأصول الشريعة .
- هى أم الكتاب والسبع المثانى[1] .
- سماها ابن عباس رضى الله عنه « أساس القرآن » .

---

(١) السبع المثانى هى سورة الفاتحة بآياتها السبع التى تثنى وتعاد فى كل ركعة من ركعات الصلاة .

وسماها سُفيان بن عُيينه « الواقية » .

وأطلق عليها يحيى بن كثير اسم « الكافية » ؛ لأنها تكفى عما عداها ، ولا يكفى ما سواها عنها .

● فيها من كليات العقيدة الإسلامية ، ما يومئ إلى الحكمة الإلهية فى اختيارها للتلاوة فى كل ركعة من ركعات الصلاة .

والفاتحة بآياتها السبع دفقة من دعاء محض وابتهال خالص إلى الله سبحانه . .

تبدأ بدعاء وتنتهى بدعاء . .

ولعل هناك سرًّا إلهيًّا فى أن تكون فاتحةُ الكتاب كلها دعاء . . . وخاتمة الكتاب كلها دعاء . . .

وما بين الفاتحة والخاتمة : عقيدة وعبادة ودعاء .

وكما كانت خاتمة الكتاب دعاء واستعاذة بالله من شر النفس والدنس ومن شرّ الوسواس الخناس . . كانت الفاتحة دعاء بدئ بحمد الله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك الملك والملكوت ، المتفرد بالعبودية ، المستعان ، الهادى المنعم . . ثم كانت بعد ذلك سؤالاً وتضرعاً من المؤمنين لله حتى يمنحهم الهداية والرشد والسداد والتوفيق .

الفاتحة دعاء بدئ بعد البسملة بحمد الله . .

● وحمد الله دعاءٌ فيه طمأنينة نفسية تُغمّى على ما ترسب فى الأعماق من اهتزاز عواطف أو جموح أحاسيس ، وتدفع إلى الصفاء الداخلى والراحة الوجدانية والهدوء القلبى . .

● الحمد وقود روحى يُصهر النفس فيزيل ما ران عليها من شوائب اليأس ، ويجدد الطاقات ويشحذ الأفئدة بفيض من أمن وأمل ورضا وتفاؤل وراحة روحية .

والمدنية الحديثةُ بضجيجها وعجيجها وآلاتها وصخبها وماديتها الشرسة

الجامحة وأوارها الملتهب وتكالبها المسعور المحموم وأنانيتها التى أحرقت الأعصاب قد بعثت القلق فى النفوس . وأورثتها أمراضاً أشاعت فى الأجسام أسقاماً عزّ علاجها وندر تطبيبها .

والطب الحديث بمبضعه السحرى ومعامله وأنابيبه ونظرياته النفسية المبتكرة ومجالاته المستحدثة تحير أمام أدواء النفس ولم تستطع عمّاقيره ورياضاته أن تنفذ إلى الأعماق ؛ لتذيب ما تركز فيها من يأس . وما شاع بين أنحائها من ألم نفسى مُمض صبغ الحياة بصبغة قاتمة ولوّن النفس بلون أسود فاحم .

والقرآن من قبل ذلك كله قد حصّن النفس من أن يتسرب ظلامُ اليأس إلى أعماقها أو يتمكن منها أخطبوط القلق بأنفاسه السامة ونفثاته المحرقة .

فشخص العلاج فى إكسيره القوى الناجع : « الحمد » . الحمد بكل ما يحمل من معنى . وبكل ما يشيعه من أمان واطمئنان . وبكل ما يشعه من رضا واستسلام . . جعله علاجاً للقلق . ودواءً للاضطراب والقنوط . وإكسيراً يتجرعه المؤمن . . فيسكن الاضطراب ويسكت القلق ويسكب الاطمئنان بردّه ويجر بُرده على المؤمن الحامد فيفيء إلى واحة فينانة من الرضا يستظل بظلالها . ويتنفس الصُعداء ويحس نسمات الأمن تهب عليه رخيةً ندية . .

وذو النفس الحيرى المضطربة . يردد بلسانه وجنانه وكيانه « الحمد لله » يرددها بعقله وقلبه ، مستعرضاً ما أفاء الله عليه من نعم . . ويظل يردد ويردد حتى يترسب فى العقل الباطن ويتركز الحمدُ بمفهومه فى اللاشعور ، وآنئذ تتراءى له حقائق ، فما كان يعده ضائعاً . وهو بين يديه . يجد فيه الخير كل الخير . والغناء كل الغناء . وما كان يراه قبيحاً . وهو تحت ناظريه . يجد فيه نواحى من جمال وجلال كانت غائبة عنه أو محجوبة

عليه أو مغطاة على بصره . .

والنفس القلقة جعل القرآن دواءها ذلك الأمل الإلهى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) وهو وعد إلهى يميت اليأس ويميط اللثام عن ضياء وصفاء وإشراق وسناء. يجدد فى الأعماق الأمل الباعث إلى الحياة وإلى العمل ، وإلى الاطمئنان ، وإلى الحمد . وبذا تغدو النفس نفساً هادئة مستقرة مطمئنة :(يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِى عِبَادِى وَادْخُلِي جَنَّتِى) . . .

وإذا كانت ركيزةُ الحمد الأولى ذلك الأملَ المتبلور فى الوعد الإلهى (ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . . فإن كيزته الثانية (وأفوِّض أمرى إلى الله) . .

فإذا ما ألقى المؤمن أموره كلها إلى مولاه . وألقى متاعبه التى ينوء بها ظهره على أعتاب سيده ومربيه . ونفض يديه من أثقال الحياة وتكاليف العيش وألقى الحمل كله بين يدى خالقه ، فإنه ولا شك يجدد طاقته ويستعيد راحته النفسية ، وما دام قد أسلم وجهه وأمره كله لمدبر الأمر مصرف الكون . . فقد تحللت نفسه مما أهمها وأمضها وأرمدها وأقلقها ، وغدا وقد خلا من الشواغل والمشاغل .

ومن فوّض أمره لله فقد توكل عليه . ومن توكل على الله فقد كفاه الله شر القلق والاضطراب . . ومنحه الهدوء والرضا . . وذلك طريق الشكر والثناء والحمد لله . .

وعن التوكل يقول الرسول : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » .

وعن تفويض الأمور إلى الله يقول الرسول: « إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلتَ وبنبيك الذى أرسلت . فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبتَ خيراً » (١) .

أما ركيزة الحمد الثالثة : فهى الإيمان المطلق بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره . . قال عليه السلام لما سأله جبريل عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وليس التسليم بالقضاء والقدر هو ما وقر فى بعض القلوب والأذهان من أنه التواكل والاستسلام . والقعود عن الكسب والعمل . والرضا بالمركز الدون . والعزوف عن الدنيا . فليس ذلك من الدين . وليس ذلك من مفاهيم الإسلام . إنما التسليم : أنْ تعمل ثم تتوكل . وأنْ تأخذَ فى الأسباب وتعمل ثم تسلم النتائج لله راضياً بكل ما يمنحه أو يمنعه . إذ كل من عند الله . وكل ميسر لما خلق له . . وفى الحديث عن رسول الله عليه السلام : « أن الله يقضى بالقضاء . فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » فالرضا إنما يكون بعد وقوع ما قضى الله به .

قال على بن أبى طالب : « كنا فى جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ومعه مخصرة . فجعل ينكت الأرض بها ثم رفع رأسه وقال " ما من نفس إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة . إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة ". فقال رجل : يا نبى الله . أفلا نمكث على كتابنا وندَع العمل . فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ومن كان من أهل الشقاء ليكونن إلى الشقاوة . فقال الرسول عليه السلام : " اعملوا

---

(١) من كتاب « رياض الصالحين » ص ٥٧ .

فكل ميسر لما خلق له . أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة " ثم قال النبي : (فأمَّا منْ أعْطَى واتَّقَى وصدَّقَ بالحُسنى فسنيسّرهُ لليُسْرَى وأما من بَخِلَ واسْتَغْنَى وكذَّب بالحسْنى فسنيسِّره للعُسْرى) .

وقال رجل للرسول : أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها أترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هى من قدر الله » .

قال الإمام الغزالى[1] : « فإنْ قلت : ما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له ؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء واستجلاب الرحمة ، فالدعاء سبب لرد البلاء كما أن الترس سبب لرد السهم . والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان . فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى : (خذوا حذركم) وألا نسقى الأرض بعد بث البذر ، فيقال : إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول » .

وتتمة لبحث القضاء والقدر ، أو لمشكلة القضاء والقدر كما يحلو للبعض أن يسميها ، بعد أن تعددت وتعارضت فيها آراء المتكلمين واتجاهات المفكرين ، نسجل هنا رأيين هما الفيصل فى هذه المشكلة التى لن تحل . والتى نرى أن روعتها إنما هى فى استعصائها على الحل .

يقول الفيلسوف المسلم المعاصر محمد فريد وجدى فى مقدمة تفسيره ص ١٤١ عن القضاء والقدر : « إننا نستطيع أن نذكر فى هذا الموضوع

---

(١) ص ٢٢٨ من الأحياء .

كلاماً ننفى به عن أنفسنا أمام البسطاء صفة الجهل . ولكنا نعلم أنه ما من حل لهذه المسألة إلا وهو قابل للنقد والرد، فليجعل كل منا هذه المسألة مما يسأل الله هدايته إلى حلها وليتق الله فى الطلب وهو يفتح عليه من العلم والطمأنينة ما لا يجد بعضه بالجدال والخصومة . يقول الله :

(واتَّقوا الله ويعَلِّمُكم الله) » .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر (١) : « أما مشكلة القدر : فإنه قد ورد فى القرآن آيات ربما تشعر بالجبر ، مثل : (وما تشاءُون إلا أن يشاءَ الله) . (ولا ينْفعُكُم نُصْحِي إن أردْتُ أَنْ أَنْصَحَ لكُم إنْ كانَ اللهُ يُريدُ أَن يغْويكم) ، (فمَنْ يرد الله أن يهْديَهُ يَشْرَحْ صدْرهُ للإسْلام ومن يُرِدْ أَن يضلّه يَجعل صدْرَهُ ضيِّقًا حرجًا كأَنما يصَّعد فى السَّماءِ) .

وفيه آيات ربما تشعر بالاختيار : (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر) ولكننا إذا تتبعنا الأحاديث وتتبعنا منزع كبار الصحابة رأينا أن الاتجاه كان ينحو نحو الاعتقاد بأنه لا تطرف فى العالم طرفة عين ، ولا تهب فيه نسمة هواء ولا يحدث فيه حادث صغر أو كبر إلا بإرادة وتقدير من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) ص ١٢٢ فى كتابه التفكير الفلسفى فى الإسلام .

لقد ملأت فكرة الألوهية قلوبهم وسيطرت على نفوسهم فاستسلموا لله خاضعين ، مؤمنين : بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

واستسلامهم هذا لله : هو نفسه الذى دعاهم إلى أن يعملوا وأن يجتهدوا فى أعمالهم . وأن يعدوا لكل أمر عدته وأن يتخذوا الأسباب : فيعدوا للأعداء ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل . ولم يمنعهم استسلامهم للقدر من أن يكونوا من كبار المكافحين لدنياهم أولا . ولدنياهم ثانياً .

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ذلك حق . ولكن الله أمرهم بالعمل وأمرهم بالسير فى الأرض والضرب فى مناكبها وأمرهم بالجهاد لإعلاء كلمة الله . والسيطرة على أئمة الكفر . إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون .

هذا الموقف هو موقف الاستسلام لله وإذا أردنا الدقة قلنا : إنه ليس موقف الجبر ، وليس موقف الاختيار وليس موقف الكسب : إنه موقف الاستسلام لله » .

على المؤمن إذن أن يكافح وينافح ويجاهد ويجدّ فى جهاده وعمله مؤمناً بقضاء الله ، موقناً بعدله وعدالته .

وما دام المؤمن يفلسف حياته وفق هذا الإيمان . ويمذهب اتجاهاته حسب ذلك المبدأ فقد استقرت داخليته ، وشعر بمزيد من الأمن والأمان والرضا والاستسلام يدفعه إلى حمد الله على كل ما قضى وقدر . وعلى كل ما حكم به وأمر . كهذا الشيخ المريض الذى نهكته العلل وأضنته الأسقام . فكف بصره ، وقطعت يداه ، وهزل جسده ، وتهدم بنيانه الظاهرى ، ومع ذلك فإنه دائماً ما ردد بلسانه وكيانه قائلا : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . . وسمعه رجل فقال له : أيها الشيخ ، علام تحمد الله وأنا أرى فيك جميع المصائب والبلايا ؟ ! فأجاب : إننى أحمد الله الذى جعل لى قلباً يعرفه ولساناً يمجده ويذكره .

قلب ذاكر ، ولسان شاكر ، وأنفاس تتردد . . . هذا هو كل ذخره وذخيرته

وكل نصيبه فى الحياة فلم يقنط ولم ييأس . بل هدأ ورضى واطمأن بعد أن حاز نعمة الذكر ونعمة الشكر ونعمة الحمد .

* * *

هذا هو الحمد بنتائجه وآثاره وفعاليته . فلا غرو أن كان صدر الفاتحة دعاء هو « حمداً لله » . ولا غرو أيضاً أن كان آخر دعاء المؤمنين فى الجنة حمداً لربهم« دعواهم فيها سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

والمنهج الدعائى تخططه لنا سورة الفاتحة . .

فهو يبدأ بذكر ويصدّر بتوسل . توسل إلى الله بأسمائه وصفاته ثم يأتى عقيب ذلك السؤال والطلب .

وها هى ذى السورة تمضى مبينة ذلك المنهج . فالحمد نتوجه به إلى الله رب العالمين الرحمن . الرحيم . مالك يوم الدين . المعبود المستعان . الهادى . المنعم .

الله :

هو الاسم الأعظم . المعبود بحق . نور السموات والأرض . يرى المبصر آثاره فى الكون ، وآياته فى الخلق فيخشع منه القلب ، ويخضع منه الوجدان ، وتتملم فيه سورة الغريزة .

ويحس المؤمن نوره يسرى فى كيانه وداخليته . فينظر بنور إلهه ويسير على هدى منه ، حتى المارق السادر فى الغى والضلال والتيه ينعم بأفضاله وفضائله ، وبإمهاله ، فلا جرم أن استحق وحده الحمد . . ولا جرم أن توجهت إليه أكف الضراعة وصعدت إليه وحده خفقات الدعاء وسبحات التوسل والابتهال . . وهو واهب الحياة فكيف تحيد الأفئدة عن عبادته ؟ وكيف تعمى القلوب عن تمجيده ؟ وكيف تكف الألسنة عن

تنزيهه وتوحيده ؟

وهو المعبود بحق . . فكيف يدين « عقيدى » بغير دينه وشرعته ؟ وكيف يعلو صوت ملحد فى ملكه ؟

وهو المنعم فكيف تقصر الأوهام عن إدراك منه ؟ وكيف يكفر به أحد وهو الواحد الأحد . الفرد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

الله نور وقوة وعزة وقدرة ورحمة وجبروت .

يقول الإمام الغزالى[١] : « ينبغى أن يكون حظ العبد — من هذا الاسم (الله) — التأله وأعنى به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه . ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقى الحق وكل ما سواه فان وهالك وباطل إلا به » .

ويقول العلامة فريد وجدى فى مقدمة تفسيره ص ٥٥ : « من وحد الله فقد اعتقد أن لا إله إلا الله . ومن اعتقد ذلك رسخت فى ضميره عقائد تتبعها ، وانجلت عنه أوهام لا تتفق معها . أما ما يرسخ فى ضميره من العقائد التى تتبعها فتيقنه بأن لا معبود إلا الله ، ولا محيى إلا الله ، ولا مميت إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا حارم إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينالوا أحداً بخير فلن يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله وتقدير الله ، و إن أجمعوا على أن يصيبوه بشر فلن يطيقوه إلا بقضاء الله وحكم الله . وأن كل ما دون الله وجود حائل وظل زائل ، وما يشاهد من أفعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر إليهم ، فهى نسبة مجازية ، وأمور اصطلاحية.

---

(١) ص ٣٣ من كتابه « المقصد الأسنى لشرح أسماء الله الحسنى » .

أما هم فى الحقيقة فآلات منفعلة وحوادث متصرفة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا كسباً . ولا يستطيعون لغيرهم شرًّا ولا ضرًّا . مملوكون لقدرة لا تحدّ بحد ، ولا تقاس بعد » .

رب العالمين :

الذى خلق الجن والإنس وأوجدهم ورباهم : عندما مدهم بأسباب الحياة المعنوية والمادية فأرسل إليهم هداةً يبصرونهم أمور دينهم ودنياهم وأمور معاشهم ومعادهم يوجهون دنيا الناس إلى دين رب الناس : لتعمر الدنيا ويسعد الأناسىّ ويصفو العيش وتسمو الحياة . فله خالص الحمد على سيادته وربوبيته .

وعلى الرغم من موجات التطرف والإلحاد التى تغمر بعض الأرجاء والتى تغذيها المدنية المنحرفة . . .

وعلى الرغم من فقاعات التحلل والإلحاد التى تعلو صفحة الإيمان الحق وتعكر صفوه . .

على الرغم من ذلك كله فإن الإيمان بالرب مركوز فى أصل الفطر وفى قرارات النفوس .

ومتى كان الله مجهولا حتى يحتاج فى إثبات وجوده إلى دليل أو برهان ؟

(ولَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وسخَّر الشَّمْسَ والقَمرَ ليقولُنَّ الله فأَنَّى يُؤْفَكون)[1] .

(ولئنْ سألتهم من نَزَّلَ من السَّماءِ ماءً فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ

---

(١) العنكبوت آية ٦١ .

مِنْ بعْدِ موْتِهَا ليقُولُنّ الله قلِ الْحَمْدُ لله)[١] .

(ولئن سألتهم من خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ليقُولُنّ الله)[٢] .

والرب :

« هو المربى والراعى والسيد ، فالله لم يخلق الكون ثم يدعه لشأنه إنما هو يربى ويرعى ويسود ، والعوالم كلها فى رعايته وتحت سيادته وله الحمد على ربوبيته المطلقة على العالمين .

« والله عز وجل يريد للإنسان أن يكون أهلا لما خصه به من الكرامة . ويريد له أن لا يضل فى متاهات البهيمية الحمقاء بعد ما ميزه بكل تلك الخصائص . ويريد له أن يؤدى حق الخلافة التى هيأه لها وأعده لاحتمال تبعاتها ، وهى أمر ليس بالهين ، لأنها خلافة عن الله الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل ، والله يريد لخليفته أن يتخلق بأخلاقه وأن يتبين الحق واضحاً فى كل شىء حتى لا يزلّه الشيطان عنه ، من أجل ذلك تعهده — عز وجل — بالتربية منذ كان ، كما يتعهد الوالد ولده العزيز حتى ينشئه على أحسن ما يريد له من طباع الخير وكريم الخصال »[٣] .

وقد أبان الشيخ شلتوت فى تفسيره : أن الحمد لله والثناء عليه مرجعهما وأساسهما هو تربية الله للعالم وقال[٤] :

---

(١) العنكبوت آية ٦٣ .

(٢) الزمر آية ٣٨ .

(٣) ص ٦٢٣ من كتاب « صور من حياة الرسول » .

(٤) ص ٣٥ من تفسيره .

« وإذا كان الحمد لله والثناء عليه مرجعهما وأساسهما هو تربيته للعالم وإحسانه إليه فما أجدر المؤمن أن يتخلق بخلق الله وأن يلتمس الحمد والثناء والرضى من الله عن هذا السبيل الكريم ، فمن أتاه الله حق التربية وحمّله مسئولياتها من إمام أو أب أو معلم أو زوجة " وكلكم راع ومسئول عن رعيته " فإن عليه أن ينظر إلى ما كلف رعايته على أنه أمانة عنده من المربى الأعظم . استخلفه فى القيام بها والإحسان فيها . ونمض فيها على سنن الرحمة والإحسان لا الجبروت والطغيان فإن ذلك أدعى إلى أن يصلح الله به . ويصلح له . وأقرب أن تناله رحمة الله وإحسانه . الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

والرحمة :

هى ضوء النجاة . يوصل برفأ الأمان هؤلاء الذين اجترحوا الآثام وارتكبوا الكبائر ووقعوا فى الموبقات فتدنست نفوسهم وتاوثت ضمائرهم وجرفتهم المادية فى تياراتها فانغمسوا فى حمأة الرذيلة وعبّوا من أوزار المدنية وخرجوا على التعاليم والأصول .

وجرعات من عقار الرحمة تبعث على ما ترسب فى الداخل وتزيل ما ران على النفس فإذا هى مشرقة صافية كأنها لم ترتكب وزراً ولم تقع فى محظور . وإذا الصفحة بيضاء ناصعة .

وذلك الذى ضجت الأرض من آثامه يحمل على منكبيه أثقالا وأحمالا من خطايا . . تركته مثقلة وماضيه أسود . . يركن إلى ربه ويعود إلى ساحة مولاه تائباً مستغفراً وداعياً مبتهلا فيجد عند سيده العفو والصفح والمرحمة . . . « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها

قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » (١).

فلا غرو أن فتح الله باب الرجاء على مصاريعه يدخل منها كل برّ وفاجر . . .

ولا جرم أن جعل الله فى رحمته ملاذاً وملجأ يفىء إلى ظله كل من اتخذ الوسيلة إليه وهناك يجد الله تواباً رحيما . .

ومن هنا تظهر العلاقة بين الرحمة والدعاء : أخطأ . . . فرجع . . فدعا . . فقبلت دعوته . . فنال رحمة الرحمن الرحيم .

الرحمن الرحيم :

يقول الأصفهانى(٢) : « والرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة . وإذا وصف به البارى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة » .

وعلى هذا روى أن الرحمة من الله : إنعام وإفضال ، ومن الآدميين : رقة وتعطف ، ثم قال الأصفهانى : « ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصلح إلا له . إذ هو الذى وسع كل شىء رحمة . والرحيم يستعمل فى غيره وهو الذى كثرت رحمته . قال تعالى : (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيمٌ) وقال فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم : (لقد جَاءَكُمْ رسولٌ من أَنْفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنِينَ رءُوفٌ رَحِيمٌ) » .

---

(١) ص ١٦ من رياض الصالحين .

(٢) فى كتابه مفردات غريب القرآن مادة « رحم » .

وقيل إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة . وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين . وفى الآخرة يختص بالمؤمنين . وعلى هذا قال : (ورَحْمَتِى وسِعَتْ كلَّ شىءٍ فسأكتُبُهَا للَّذين يتَّقُون) . تنبيهاً إلى أنها فى الدنيا عامة : للكافرين والمؤمنين . وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين .

ويقول الشيخ شلتوت[1] : « الرحمن الرحيم : هذه هى الآية الثانية من آيات سورة الفاتحة تشتمل على اسمين كريمين من أسماء الله الحسنى : الرحمن الرحيم .

وقد كثرت أقوال المفسرين فى العلاقة بين هذين الاسمين :

● فبينما يرى فريق أن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم وأن الرحيم هو المنعم بدقائقها .

● يرى فريق آخر أن الرحمن هو المنعم على جميع الخلق وأن الرحيم هو المنعم على المؤمنين خاصة .

● ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد وأن الثانى تأكيد للأول .

● ويرى بعض المتأخرين أن الوصفين متغايران تمام التغاير . فالرحمن صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان ، والرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه . ويدل على هذا أن الرحمن لم تذكر فى القرآن إلا مجرى عليها الصفات كما هو شأن أسماء الذات (قل ادْعُوا اللهَ أو ادعوا الرحْمَنَ) . (لِمنْ يكْفُرُ بالرَّحْمَنِ)

---

(١) فى تفسيره ص ٣٤ .

(أن دعوا للرَّحْمَن ولدًا) . (إنِّى أخافُ أن يمسَّك عَذابٌ من الرَّحْمَنِ) . (الرَّحْمَنُ علَّم القُرآنَ) .

أما الرحيم فقد كثر فى القرآن استعمالها وصفاً فعلياً وجاءت بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه (إن الله بالناس لرءوف رحيم) (وكان بالمؤمنين رحيما) (وهو الغفور الرحيم) كما جاءت الرحمة كثيراً على هذا الأسلوب « ورحْمَتِى وسِعَتْ كل شىء) .(يَنْشُرْ لكم ربُّكم من رحْمَتِه) ولم يرد فى القرآن تعبير ما « برحمانية الله » .

وهذا الرأى فى نظرنا هو أقوى الآراء . فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض انعم عليهم لا دليل عليه .

كما أنه ليس مستساغاً أن يقال فى القرآن : « إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها » .

وللإتيان بهذين الاسمين الكريمين بعد ذكر ربوبية الله تعالى مغزى عظيم ، ذلك بأن الله بين بهما أن ربوبيته وملكه للعالم ليس مصدرهما جبروته وقهره (وهو القهار الجبار) ولكن مصدرهما عموم رحمته وشمول إحسانه لجميع خلقه ، فإنهم بالرحمة يوجدون وبالرحمة يتصرفون وبالرحمة يرزقون وعلى الرحمة يعتمدون وبالرحمة يوم القيامة يبعثون ويسألون .

فإن استقر هذا المعنى فى نفوس العباد وأن الله يتحبب إليهم بصفة الرحمة والإحسان كان ذلك أبعث لإقبالهم عليه بصدور مطمئنة وقلوب مؤمنة »

مظاهر الرحمة :

ونحن إذا تتبعنا آيات القرآن وجدنا أن رحمة الله بعباده لها مظهران : مظهر التربية الخلقية ومظهر التربية التشريعية . والحياة كلها تقوم على المادة والروح وبهذا يتبين معنى قوله تعالى : (ورَحْمَتِي وسِعَتْ كلَّ شيْءٍ) .

مالك يوم الدين :

والكلية الثانية من كليات العقيدة الإسلامية تتضمنها الآية (مالك يوم الدين) والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة . ويوم الدين يوم الجزاء . ومالك يوم الجزاء هو مالك أيام العمل فالجزاء نتيجة . والعمل سبب فهو مالك الدنيا ومالك الآخرة جميعاً .

ومن هنا تظهر الصلة والعلاقة بين الدعاء وبين تلك الكلية الإسلامية (مالِكِ يوْمِ الدِّينِ) مالك يوم الدين المتصرف فيه بالعفو والصفح والمثوبة والعقاب .

والمؤمن مهما يعمل فإنه يستقل عمله فى جانب الله . ويستصغر ما أداه ، فى نظير نعم الله عليه ويعتقد أن ما قدم فى دنياه من صالح العمل ومن ألوان الخير والبر لا تجزى يوم القيامة إلا إذا رضى عنه مالك يوم القيامة . فلا جرم أن دعا وابتهل إلى مالك الملك والملكوت وإلى مالك يوم الدين ليغمره بغفرانه ورحماته يوم الدين (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بنُونَ إلا مَنْ أَتى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ) .

المعبود :

إياك نعبد :

فلا نعبد إلا أنت . والعبودية تذلل وخضوع والدعاء تذلل وخضوع ، ومن هنا كانت العلاقة بين الدعاء وبين تلك الحقيقة الإسلامية (إياك نعبد) .

وكل مفاهيم العقيدة وأهدافها وروافد توصل إلى هدف أسمى وأعم هو : العبادة . . .

والعبادة هي المقصد . وهي الغرض من الخلق مصداقاً لقول الخالق : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) .

الهدف إذن هو عبادة الله وحده . والتحرر من عبودية ما سواه : التحرر من عبودية المادة . والمادة على النفوس سلطان . تجرفها فتعميها عن أبسط واجبات الإنسانية . وتغطي عليها بردائها فتبعدها عن رفيع القيم وعالي المثل . والتحرر كذلك من عبودية الطغاة فلا يخضع المخلوق إلا للخالق .

وما دام المتكفل بالرزق والحياة هو الرازق واهب الحياة فكان من البلاهة أن نستكين إلى الخلق . أو نخشى بطش المخلوق الذي مهما تجبر وتكبر وطغى وبغى فهو ضعيف تؤلمه لسعة وتؤرقه حشرة . وتعتريه بالرغم عنه لحظات يشعر فيها بالضعف الإنساني . . .

وفي النهاية مهما عمر في الأرض ومهما عمر في السن فمصيره إلى الفناء ومسيره إلى عدم وزوال . والله فوق الخلق حي باق دائم قيوم قوي . فهو القمين بالعبادة الجدير بالسؤال والابتهال والاستعانة : إياك نعبد . وإياك نستعين .

المستعان :

والاستعانة بالله فرار إلى الله وتعلق النفس به ، وطلب العون منه . . استعانة من عاجز ضعيف بقوى قادر . واستغاثة من ملهوف برب رءوف ، وتوجه ورجاء إلى مصرف الكون ومدبر الأمر ليزيل علة أو يزيح غمة أو يفرج كربة أو يحقق رجاء وطلبة .

فالزارع بما تهيأ له من وسائل الزرع ومن إمكانيات الزراعة يمد يده بالحب فيبذره فى الأرض ويبادر فى نفس الوقت بمد يديه إلى السماء مستعيناً بمن فى السماء سائلا إياه أن يبعد عن زرعه آفة تهلك الزرع وأن يبعد عن أرضه جائحة تميت الثمر أو تبيد المحصول .

وهكذا شأن المؤمن من العامل فى أى منحى من مناحى الحياة يجد ويكد ويجتهد ويكافح ويناضح بجهاده الذاتى مستمداً من مولاه ما يعينه على إتمام عمله مستعيناً بإلهه وخالقه حتى يكتب له النجاح والوصول إلى الهدف والمبتغى .

ومن هنا يكمن الارتباط وتظهر العلاقة بين الاستعانة والدعاء .

يقول الإمام محمد عبده (فى تفسير المنار ص ٥٩ ج ١) : « أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة (وإياك نستعين) إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة ، أحدهما : أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه ، أو يخشى ألا ينجح فيه فيطلب المعونة على إتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه ولكن بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية وركن من أركان السعادة الأخروية.

وثانيهما : ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فما وراء ذلك وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رقّ الأغيار ويفك إرادتهم من أسر الروحانيين والشيوخ الدجالين ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين فيكون المؤمن مع الناس حرًّا خالصاً . وسيداً كريماً . ومع الله عبداً خاضعاً » .

واختصاص الله بالتوجه إليه والاستعانة به (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) هى الكلية الرابعة التى تنشئها الكليات الأولى الثلاث فلا عبادة إلا لله . ولا اتجاه لغير الله وما من قوة فى الكون إلا قوته فالله وحده يُعبد والله وحده يستعان .

هداية . . . وطريق

اهدنا الصراط المستقيم :

سؤال المؤمن ومبتغاه من دعائه هو الهداية . . .

يسأل مولاه أن يهديه إلى ما فيه صلاحه وفلاحه ونفعه ونجحه . . يسأله أن يأخذ بيده وسط ظلام الدنيا الحالك ووسط الأنواء والأهواء ويوصله إلى مرفأ الأمن والأمان . . . ويهديه إلى النور . . الهداية الحسية والمعنوية : هداية الروح إلى ما فيه راحة لها ، وهداية القلب إلى ما فيه سكن له ، وهداية العين حتى تقر العين ويهدأ الوجدان . . وهداية العقل والفكر هداية القلب واللب إلى العقيدة السليمة الصحيحة المبرأة من الشوائب والخالية من الدخيل والمدسوس والمنزهة عن الضعف . . الهداية إلى الدين الصرف الصراح وإلى الشريعة التى تلائم مع الأجواء المنتشرة فلا تعزل معتنقيها عن الركب ولا تبعدهم عن القافلة ولا تنحرف بهم عن الجادة . . وهداية الحس والمشاعر حتى لا تضل أو تزل وحتى لا تنحرف أو تجور وحتى لا تتنكب الجادة أو تميل . .

هداية عامة شاملة . . .

وحينما دعا الرسول لقومه عندما ذاق منهم ما ذاق . وعندما رأى انحرافهم سأل الله لهم أمراً واحداً فيه رشدهم وهدايتهم . سأل لهم الهداية فقال : « **اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون** » ولاجرم فالهداية يتبلور فى معناها

الكثير من المفاهيم والقيم وهى ملاك كل أمر وأس كل خير وبر . يقول الإمام محمد عبده (١) :

« نبهنا الله جل شأنه أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه . بعد أن نبذل ما نستطيع من التفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين به بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة فى قوله : (وإياك نستعين) .

وقد أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للإنسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : (وهديناه النجدين) أى طريقى السعادة والشقاوة والخير والشر . . .

قال الأستاذ الإمام : « وهذه الآية تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين » . والهداية إلى الدين بأصوله وطقوسه ورسومه ومفاهيمه وأحكامه وحكمه تقصر الأفهام عن الوصول إليها وتعيا العقول عن الاهتداء إلى السير فى طريقها الواضح الصحيح .

« ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال فى فهم الدين وفى استعمال الحواس والعقل كان محتاجاً إلى المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه فى قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) فمعنى اهدنا الصراط المستقيم دلنا دلالة واضحة تصحبها معونة غيبية منك لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ ، وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شىء سواه »(٢) . أمرنا الهادى أن نسأله سلوك الطريق المستقيم وهو

---

(١) ص ٦٦ تفسير المنار .

(٢) ص ٦٤ المصدر السابق .

طريق واحد لا عوج فيه ولا انحراف ولا عقابيل . طريق النور . طريق الحق والعدالة والشرعة الإلهية ، طريق التكاليف نسير فيه جميعاً وحدة واحدة لهدف واحد تحت لواء التوحيد لنصل . . إنه طريق الوصول إلى الواحد الأحد . . إلى الله . ومن كان الله هدفه ومبتغاه فقد جمع الخير من أطرافه وسيقت له الدنيا . . .

ودعوة الهداية إلى الصراط المستقيم وإن كانت تبدو دعوة جزئية إلا أنها تحمل بين طياتها جُلّ مدلولات الأدعية الجزئية . إنها دعوة جامعة تغني عن كل دعاء . . دعوة شاملة . وهذا الشمول يناسب شمول الكليات العقيدية التي تضمنتها هذه السورة .

صراط الذين أنعمت عليهم :

طريق المؤمنين الذين أنعمت عليهم بالإيمان . .
وطريق المسلمين الذين هديتهم من لدن آدم إلى الآن . .
فارتضيت لهم الإسلام ديناً وسميتهم المسلمين . .
صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .
اهدنا صراطهم الإيماني وطريقهم العقيدي . . لنسلكه . . فنسلك في عدادهم ونحشر معهم . . .

غير المغضوب عليهم :

ونكبنا طريق هؤلاء الذين علموا اليقين وتبينوا الهدى وظهر لهم الحق واستيقنته أنفسهم ثم جنحوا إلى الباطل ومالوا إلى الظلام ولووا رءوسهم منصرفين عن النور مبتعدين عن الحق فارين من الشريعة . . وانحرفوا

يعبون من الباطل ويغرقون أنفسهم فى حمأة الشرك يعضّون بالنواجذ على تقاليد بالية ومعتقدات فاسدة موروثة . يرددون طقوسها كالآلات الصماء أو العجماوات البكماء لا يحكمون تفكيراً ولا عقلا . فحق عليهم غضبك وحق عليهم عقابك جزاء إصرارهم على الباطل وازورارهم عن الهداية . . .

. . ولا الضالين :

وأبعدنا عن مجالات هؤلاء التائهين . الذين يسيرون فى متاهات ومفاوز من ضلالة وغواية وعماية لا يخرجون منها إلى نطاق النور والإشعاع والهداية . لم يعرفوا الحق ولم يسيروا فى الجادة المرسومة . . وأنّى لهم ، وهم لم يتذوقوا ديناً . ولم يطعموا عقيدة ولم يرضعوا لبان إيمان ؟

كهؤلاء الوجوديين الذين يعيشون لأنفسهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام . شهوة عارمة ولذة مقتنصة . وإباحية وبهيمية وإهدار لموازين الأخلاق والعرف والسلوك .

وكهؤلاء المتمدينين الماديين اللادينيين الذين لا يعترفون إلا بالمادة ولا يحسون إلا وجودها والذين بلغوا فى العلم بالحياة والخبرة بأمور الدنيا ما أوصلهم إلى الترف الحسى والنعيم المادى إلا أنهم فى فراغ روحى وفى جدب عقائدى لم تنعم واحة عقيدتهم بنفحة من إيمان أو ومضة من نور أو إشراقة من هداية تخفف حرّ شركهم .

وكهؤلاء الذين جابوا بقذائفهم وصواريخهم فى دنيا السماء قائلين فى تبجح أين الله ؟ . . متحدين شعور الموحدين ساخرين بكل عقيدة متطاولين على المؤمنين . . ! !

هؤلاء السادرون فى الغواية قد مدّ الله لهم أسباب الرقى المادى ومهد لهم

سبله وحرمهم الإيمان والروحية فتاهوا فى متاهات الضلال وغطى على أعينهم فأنّى لهم أن يبصروا الطريق الانبغائى الصحيح ؟ !

وكهؤلاء الذين يعيشون فى المتاهات فى براري امريكا ومجاهل أفريقيا وبين أحضان الأدغال ودروب الصحارى بين الوحوش والبراري والسباع والضواري انقطعوا عن العالم . . وعن المدنية . . وعن العلم . . فظلوا حيث هم . . وحيث كان آباؤهم وأجدادهم لا فارق ولا اختلاف بل تقوقع وتأخر وركود وخمود وجمود يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم ويجترون ما ورثوه من بالى العادات وسقيم القيم . شريعتهم شريعة الغاب والغلبة والناب لا حياة للضعيف . . لا قيم ولا موازين بل حيوانية وفظاظة . . وعنجهية وجهالة . لم تروض نفوسهم علوم ولم تهذب عقولهم معارف ولم يطامن من جفوتهم تمدين . ولم يغز السلوك الحضارى حياتهم فيذيب ضراوتهم ويبيد بداوتهم وغلوائهم .

وكهؤلاء الضالين الذين ابتدعوا فى العقيدة ما هى منه براء « الذين بلغتهم الرسالة وصدّقوا بها بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها فاتبعوا أهواءهم فى فهم ما جاءت به من أصول العقائد وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين ومنهم المبتدعون فى دين الإسلام وهم المنحرفون فى اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ففرقوا الأمة إلى مشارب يغص بمائها الوارد ولا يرتوى منها الشارب »(١) .

---

(١) تفسير المنار .

هذه هى الفاتحة :

« من أعلى الكلام فصاحة وبلاغة وجمعاً للمعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة واشتمالا على مهمات الدين من صفات الله التى تجذب قلب من تدبرها إلى حبه . وتنطق لسانه بحمده . وتعلى همته بتوحيده . وتهذّب نفسه بمعانى أسمائه وصفاته وإحاطة ربوبيته وملكه . وتذكره يوم الدين الذى يجزى فيه على عمله . وتوجه وجهه إلى السير على الصراط المستقيم فى خاصة نفسه وفى معاملة الله ومعاملة خلقه . وتذكره بالقدوة الصالحة فى ذلك بإضافة الصراط الذى يتحرى الاستقامة عليه ويسأل الله توفيقه دائماً له . إلى من أسبغ الله عليهم نعمه ومنحهم رضوانه وجعلهم هداة خلقه بأقوالهم وأسوتهم الحسنة فى أفعالهم ومثال الكمال فى آدابهم وأخلاقهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وتحذره من شرار الخلق الذين يؤثرون الباطل على الحق ويفضلون الشر على الخير على علم منهم بذلك وهم المغضوب عليهم ، أو على جهل به كالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . وهم الضالون »[١] .

يقول الشيخ محمود شلتوت [٢] : « إن المتتبع للقرآن جميعه الواقف على مقاصده ومعارفه يرى أنه جاء تفصيلا لما أجملته هذه السورة .

« وحددته من طريق الكمال الإنسانى فى قوتيه : قوة النظر والعلم وقوة الكسب والعمل » . .

ويقول الشيخ محمد عبده [٣] : « إن الفاتحة مشتملة على إجمال

---

(١) ص ٧٨ من تفسير المنار .

(٢) ص ٤٦ من تفسير شلتوت .

(٣) ص ٦٦ من تفسير المنار .

المحراب العتيق فى مسجد الأزهر

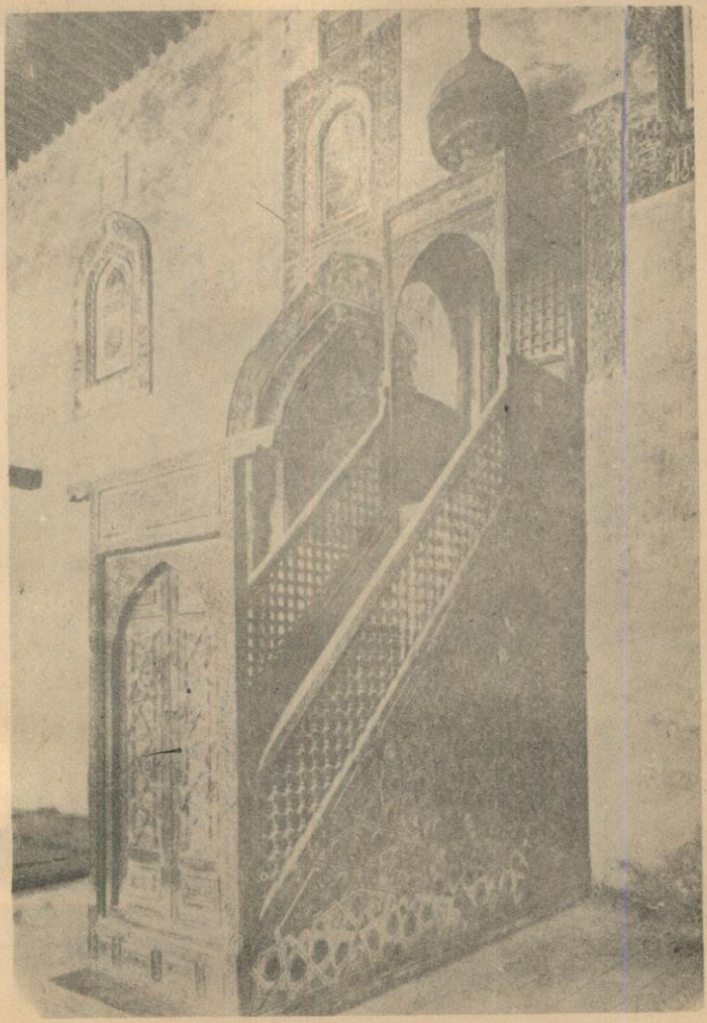

مسجد الصالح طلائع - المحراب.

ما فصّل فى القرآن حتى من الأخبار التى هى مثل الذكرى والاعتبار وينبوع العظمة والاستبصار . وأخبار القرآن كلها تنطوى فى إجمال هذه الآية (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) . .

ذكر أبو سعيد بن المعلى : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له وهما فى المسجد « لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن نخرج من المسجد » . قال : ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ فقال : الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » . .

مفاهيم وقواعد . . وكليات وأصول . . وتواريخ وأحداث . . وصور ومشاهد كل ذلك تضمنته فاتحة الكتاب فكانت دفقة من دعاء وشحنة من ابتهال يكمن فيها قوى عدة يتزود بها الداعى ويتسلح بها الذاكر يشحن بها طاقته ويشحذ بها إيمانه ويدجج بها معرفته ويقينه . يدعو بها بعد أن يستقرئ كل متضمناتها ويستتبعه بعين البصير الفاحص المتأمل . وبقلب المؤمن الخاشع الوجل وبإحساس المتدين الذى يتعظ بالذكرى ويعتبر بالنهايات ويعتقد فى عمق وقوة بهذه القواعد وتلك النواميس .

قال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين . ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد " الحمد لله رب العالمين " قال الله " حمدنى عبدى " فإذا قال " الرحمن الرحيم " قال الله " أثنى على عبدى " فإذا قال " مالك يوم الدين " قال " مجدنى عبدى " وإذا قال " إياك نعبد وإياك نستعين " قال : " هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل " فإذا قال " اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " قال : " هذا لعبدى ولعبدى ما سأل " » . . .

من سورة البقرة :

كلمات لآدم

(فتلقَّى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتابَ عليْهِ ، إنَّه هو التَّوَّابُ الرَّحيمُ) [٣٧]

آدم أبو البشر :

وقصته هى قصة البشرية فى كل آن ومكان . . من الوجود إلى النهاية . . من الأزل والقدم إلى الفناء والعدم . هى معصية وندم . . زلل واستغفار . . خطأ وتوبة ! !

أمر إلهى لآدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ، ويتمتعا بما فيها .

ومعه نهى إلهى لهما عن الاقتراب من شجرة معينة فيها . .

وجمحت النفس البشرية فانحرفت . . وعصت تعاليم المولى فى لحظة من لحظات الضعف البشرى التى ناصرها الشيطان وأججها وقوّاها . . فكانت المعصية بالاقتراب من الشجرة واقتراف الذنب . فأخرجهما الله مما كانا فيه . . من نعيم حسىّ ومعنوى . . إلى نعيم أرضىّ هابط . . وهبطت منزلتهما بالعصيان والغواية . .

عصى آدم ربه فغوى . . ثم اجتباه فتاب عليه وهدى . .

تلقى آدم من ربه كلمات . . فتاب عليه . . وغفر له . . وهداه إلى الرسالة .

كلمات هى دعوات ألهمه الله إياها فأناب إليه بها ، وهى — كما فى سورة الأعراف :

(ربَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وإن لم تغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنَا لنكونَنّ من الخاسِرِينَ) .

تاب آدم بذلك وأناب إلى ربه فتاب عليه .

كلمات أهلته للصفو . وللصفح . وللعفو . وللعودة إلى رحاب الله . .

دعوات هى لون من ألوان الإعداد والتأهيل وشحذ الطاقة لتخلص وتتقبل وحى الله . .

ولتجلو لاستقبال أوامر الله . والتقاط إلهاماته .

كلمات هى ذكر يزيل ما ران على الوجدان . ويذيب الغشاوات التى تعلو صفحة الفؤاد ويجتث من القلب شرايين الغلظة والجفوة والقسوة فإذا هو معدّ لتقبل الإيحاءات . .

أدعية هى أوعية الغفران .

أدعية وكلمات كما أمدت روح أبى البشر آدم بإشراقات وإشعاعات للتوبة أعدت روح إبراهيم لتلقى الرسالة وتحمل أعبائها .

أمر بالدعاء

الدعاء مأمور به . فهو يغسل الأدران . ويزيل ما ران على القلب من غشاوات الغلظة والجفاف . ويصل الخلق بالخالق . ويرجع بالمرء إلى حظيرة الإنسانية الحقة . وإلى البشرية المثالية .

وها هو ذا المولى . جلت قدرته . يأمر بنى إسرائيل أن يدخلوا بلاداً كثيرة ومدناً عديدة . ليروا فيها آثاره فتخشع منه القلوب . وتخضع الأفئدة . ويستشعروا نعم الله وعظمته وأفضاله . فيعبدوه . . ويشكروه . . ويحمدوه . . ويذكروه .

ثم أمرهم مع ذلك بالدعاء . قولوا : « حطة » : ادعوا الله أن يحط عنكم خطاياكم وأوزاركم ، ادعوا الله ليكفر عنكم كفركم بالنعم ، ادعوا الله ليحط عنكم تقصيركم فى شكره وعبادته

وقد وعدوا المغفرة لو أطاعوا ، ولكنهم خالفوا ولم يستجيبوا ، ولم يدعوا ، فنأى بهم كل ذلك عن العفو والمغفرة :

(وإذ قُلْنا ادْخُلوا هذه الْقَرْيةَ فكُلُوا منها حيْثُ شئْتُم رغدًا ، وادْخُلوا الباب سجَّدًا وقولوا حطَّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسَنزِيدُ المحسنين [٥٨] فبدَّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأَنْزَلْنَا على الذِين ظَلَمُوا رِجْزًا من السّماءِ بما كانوا يَفْسُقُونَ [٥٩]) .

لفظ . . . ولفظ

(يأَيُّها الَّذِينَ آمَنوا لا تَقُولُوا راعِنَا وقُولُوا انْظُرْنا واسْمَعُوا ولِلْكَافِرِينَ عذابٌ أَليمٌ [١٠٥]) .

تربية إلهية ، وتوجيه ربانى للمسلمين المعايشين لفريق من أهل الكتاب الذين التقطوا ألفاظاً استعملها المسلمون فى محادثاتهم . فحرفوها بعض الشىء حتى تستقيم مع مدلولاتها فى لغتهم القديمة . ولووا بها ألسنتهم يريدون بها النيل من المؤمنين والطعن فى الدين . فألقى الله الضوء — ضوء هذه الآية — ليكشف للمسلمين عما يكنه أهل الكتاب من سوء استعمالهم

لمدلولات بعض الألفاظ ، فنهى المسلمين عن استعمال كلمة (راعنا) واستخدامها فى خطابهم للرسول (١) «إذ أن اليهود سمعوها فافترصوها (٢) ، وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلمة شتم بلسانهم العبرانى » .

قولوا بألسنتكم فى الدعاء قولا غير الذى تعارف عليه أهل الكتاب ؛ واسلكوا فى طاعة الله سبيلا غير الذى عرف عنهم من المعصية . وبهذا يتم الامتياز ويتحقق التفرد وتبرز الشخصية الجديدة : شخصية المؤمنين ويتميزون عن الكافرين الذين أعدالله لهم مصيراً كذلك متميزاً (وللكافرين عذاب أليم) .

قولوا غير قولهم واعملوا بغير عملهم واسلكوا غير سبيلهم إنهم لكم عدو ، إنهم لا يريدون بكم خيراً شأنهم فى هذا شأن المشركين (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

. . . وكلمات لإبراهيم

(وإذِ ابْتَلى إبْراهيمَ ربُّه بكَلِمات فَأَتمهُنّ : قال إنِّى جَاعِلُكَ للنَّاس إماماً قال : ومِنْ ذرِّيتى . قال: لا ينال عَهْدِى الظَّالِمين [١٢٤] .

---

(١) ص ٤٠٩ ج ١ من تفسير المنار . (٢) أى انتهزوها فرصة

وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأَمْنًا واتَّخِذوا من مَقَامِ إبراهيم مُصَلًّى وعَهِدنا إلى إبْرَاهيمَ وإسْمَاعِيل أن طهِّرا بَيْتِيَ للطَّائِفِينَ والعاكِفِينَ والرُّكَّع السُّجود [١٢٥] .

وإذْ قال إبْرَاهيم ربِّ اجْعَلْ هَذَا بلدًا آمنًا وارْزُقْ أَهله من الثَّمرات من آمَنَ منهُمْ باللهِ واليَوم الآخِر قال ومَنْ كَفَرَ فأُمَتِّعُه قليلا . ثم أَضْطَرُّه إلى عَذَابِ النَّار وَبِئْسَ المَصِيرُ [١٢٦]) .

الابتلاء منحة . . أو محنة :

وقد ابتلى الله إبراهيم بكلمات : فمنحه كلمات ككلمات آدم . . منحه أدعيات ودعوات . فأتمهن : وقام بتلاوتها حق التلاوة وحق التأمل والتبصر فى معانيها ومداومة القلب على الذكر بها . ومتابعة العقل للقلب حتى تمكنت فى القلب وترسبت فى الفؤاد . وتعمقت فى داخليته وأعدت روحه لتقبل تعاليم الرسالة . . .

وكانت الرسالة . . .

وجعله الله إماماً للناس وجعل من ذريته أئمة ورسلا ومرشدين.

إن الكلمات التى تتلقاها كل رسول من ربه . . هى فيما يبدو مجموعة من أدعية ودعوات تقوم بعملية تهيئة داخلية وغسيل نفسى وعلاج روحى وتحصين قلبى ليستعد قلب الرسول لتلقى الإلهامات الإلهية . . عملية تطهير داخلية . كل رسول لابد أن يمر بها : لذا كانت حادثة شق الصدر

للرسول محمد صلى الله عليه وسلم هى — رغم ما يحاول المحدثون — عملية تطهير نسلم بها ونؤمن بها على ظاهرها ولو كره المتمدينون . .

حادثة شق صدر الرسول محمد عليه السلام . أيام أن كان صغيراً فى البادية فى حضانة « حليمة السعدية » تربيه تربية جسمية . وأراد الله أن يربيه تربية نفسية نقية وتربية روحية حية ، فأرسل إليه ملكين شقا صدره الكريم ، وأتما هذه العملية الإلهية .

تلك الحادثة إن حكمنا العقل . والعقل وحده . ووضعناها تحت مجهره فحسب ، فإن هناك ملابسات تبدو لا يتصورها العقل ولا يهضمها ؛ إذ هى على خلاف العادة :

فإن من لا يؤمنون إلا بالمشاهد والمحسوس ، والذين لا يخضعون إلا للموازين المعقولة والمقاييس المعتادة . هؤلاء ينكرون حادثة شق الصدر . أو يؤولونها .

أما الذين لا يحكمون العقل وحده فى أمور الشريعة عامة وحياة الرسول خاصة ، والذين يؤمنون بما وراء المادة . بالسمعيات والغيبيات . والذين يسلمون بالقصور العقلى — أما كل أولئك فيؤمنون فى عنف وعمق وتسليم بهذه الخصوصيات التى خص الله بها الممتازين من خلقه وكرّم بها أنبياءه وأصفياءه وخلانه وأولياءه ورسله : هؤلاء الرسل الذين رباهم واصطفاهم وميزهم ، واختارهم وأهّلهم تأهيلا خاصاً من بين خلقه . على الرغم من كل ما أثير حول عملية شق الصدر فإن المنصفين يعلمونها عملية إعداد وتهيئة من الربّ المربى لعبده المرسل . عملية تطهير لمن أعدّه ليكون أهلا وقدوة ومثلاً أعلى لبشرية من يوم مولده إلى يوم الدين . .

فلابد والحال هذه من أن يتعهده الرب وتهيئه منذ صغره تهيئة خاصة على خلاف العادة والمألوف لتحمل أعباء الرسالة . . وحتى يمر فى جميع مراحل نموّه وهو مبرأ . صاف نقى ظاهر . طاهر الظاهر والباطن . صا

الجسم والروح لا تتدنس جبهته بالسجود لصنم ولا يلهج لسانه إلا باسم الله . ولا يخشى فؤاده إلا الله ، ولا يستجيب قلبه لدعوة باطلة ، ولا ينحرف ولا يشذّ فى صغره وشبابه . وأيام فورة جسده وعنفوانه .

وكيف ينحرف من اصطفاه الله ، وصنعه على عينه . . ؟
فلا عجب أن كانت هناك تهيئة إلهية . . وإعداد ربانىّ .
ولا عجب أن كان هناك شق صدر حسى .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه قبيل الإسراء والمعراج هيئ تهيئة خاصة . روت كتب السيرة أن الرسول عليه السلام « أتاه آت ليلة الإسراء ففرج صدره ثم غسله بماء ثم جاء بوعاء ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدره الشريف ثم أطبقه » .

إننا فى عصرنا الحالى وبعقليته المتطورة . وبروحه العلمية نؤيد هذه الأحاديث . ولا نرى فيها إلا نوعاً من أنواع التهيئة الإلهية لرسول بشر عندما يكلف بأمر غير عادى . . .

فالإسراء والمعراج رحلتان إلهيتان : رحلة أرضية . وأخرى سماوية ، لا تكونان طفرة . بل لابد أن يسبقهما إعداد وتأهيل ، كما أن رواد الفضاء فى عصرنا الحاضر — والقياس مع الفارق — يعدون إعداداً خاصاً ، يخضعون فيه لنواميس غير عادية . وتمرينات خاصة جسمية ونفسية ، ونظم معينة .

فكل رسول لا بدّ أن يمر بمرحلة الإعداد والتأهيل :
شق صدر . . كما كان لرسولنا محمد فى البادية ، وقبيل الإسراء . . .
أو كلمات . . ككلمات آدم وإبراهيم . . .
كلمات ربانية . . لا يدركها حصر ولا عدّ . (قل لو كان البحر

مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) (١) .

أرسل الله إبراهيم لقومه . .

وعهد إليه ببناء بيته ، وتطهيره ، فبنى البيت وطهره حساً ومعنى .

وكانت الكعبة بيت الله الحرام (٢) ، أول بيت بني في الأرض لعبادة الله وحده ، وكانت البيوت قبله تبنى لعبادة الأصنام أو لعبادة غيرها من الشمس والقمر والكواكب والنجوم والأشجار والأنهار والحيوان والطير وما إلى ذلك من كل ما يروع النفس لعظمته أو يملك القلوب بمنفعته . وهو أول بيت وضع للناس ليطوفوا به ، ويحجوا إليه من مشارق الأرض ومغاربها وأول بيت حرّم الله فيه القتال والخصام والجدال وحرّم من أجله مكة كلها وسمّاها (البلد الأمين) . ثم هو قبلة المسلمين جميعاً . يتجهون إليه في صلاتهم مهما تباعدت بلادهم واختلفت أقطارهم ، فضّله الله على سائر المساجد ، وحرّم دخوله على المشركين . وجعله حرماً آمناً لا يلجأ إليه خائف إلا أمن ولا يدخله داخل إلا أحسّ بأنه من حماية الله في حصن حصين ، من أجل هذا أحبه أهل مكة ، وعظموه وقدّسوه ، وعاشوا في حماه آمنين على أنفسهم وأموالهم تغدو قوافلهم وتروح في الصحراء آمنة مطمئنة ، لا يتعرض لها الأعراب كما يتعرضون لسواها بل ربما نصبوا أنفسهم حراساً عليها حتى يصلوا بها إلى مأمنها ، لأنها قوافل أهل الحرم الذي قدّسه الله وعظمه وجعله مباركاً وهدى للعالمين » .

دعا إبراهيم ربه أن يجعل مكة بلداً آمناً تنتشر ألوية الأمان فوق ربوعه ، من أراده بسوء قصمه الله . . لا يستقر عليه قدم غاصب

---

(١) من سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٢) ص ١٢ من كتاب صور من حياة الرسول للأستاذ : دويدار .

ولا تتمكن منه يد محتل ولا تتحكم فيه إمرة دخيل .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فى ذلك . ومن تعدّى على البيت لم يطل زمن تعديه . ويستمر إبراهيم فى دعائه فيطلب من ربه أن يرزق مؤمنى أهل هذا البلد من الثمرات . . ثمرات كل شىء . . ثمرات الأرض الظاهرة والمستترة . فأرض هذا البلد على ظهرها نبت ونجم وشجر يؤتى بالأكل والثمر . ويجود بالنتاج والخير . . وفى باطنها ثمرات مخبوءة مطمورة ، تتفاعل وتضطرب وتفور وتمور فتتفجر أحياناً عيوناً من ماء عذب أو آباراً تجرى فى أنابيب سرعان ما تتحول إلى ذهب أسود . أو معادن تصهر فى بوتقة تغدو بعدها ذهباً أصفر يتشكل حلياً وسبائك تسحر البصائر وتبهر الأبصار .

ويجيبه الله سبحانه وتعالى إلى سؤله ، يقول صاحب تفسير المنار ص ٤٦٥ ج ١ . . « ذكّر الله العرب بدعاء إبراهيم عليه السلام لبلد البيت واستجابة الله تعالى دعاءه إذ جعله بلداً آمناً تجبى إليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتع أهله بها . وهى نعم يعرفونها لا ينكرها أحد . وذكرهم بعد هذا بأن إبراهيم هو الذى بنى البيت بمساعدة ابنه إسماعيل ، وذكر لهم من دعائهما هنالك ما يرشدهم إلى العبادة الصحيحة والدين الحق ويجذبهم إلى الاقتداء بذلك السلف الصالح الذى ينتمون إليه ويفاخرون به » .

دعاء . . واستجابة

(وإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، وإِسْماعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ١٢٧] رَبَّنَا]

واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذُرِّيتنا أُمَّةً مُسْلمةً لك وأَرِنَا مَناسِكنا وتُبْ علينا إنَّك أَنت التَّوابُ الرَّحيمُ [١٢٨] ربَّنا وابْعَثْ فيهم رَسُولاً منهم يتلو عليهم آياتِكَ ويُعَلمُهُمُ الكِتابَ والحكمةَ ويُزَكِّيهمْ إنك أنت العزِيزُ الحكيمُ [١٢٩]).

* * *

إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام يرفعان الأسس . ويعليان الدعائم فى بناء الكعبة بيت الله الحرام . ومع كل لبنة توضع فى بناء البيت كان دعاء منهما يرفع إلى رب البيت . وابتهال يصعد (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

(ربنا واجعلنا مسلمين لك) متجهين إليك فى جميع أمورنا . فى معاشنا ومعادنا .

واجعل (من ذريتنا أمة مسلمة لك) تسير على نهجنا مستلهمة ملتنا وإسلامنا متبعة نهجنا ودعوتنا .

دعاء إبراهيم ذاك ، هو دعوة إلى الإسلام . بكل ما تتضمنه لفظة الإسلام من : سلام ومسالمة وتسليم وبكل ما تحمله كلمة إسلام وانقياد وتوكل واعتماد .

تلك هى الأسس والركائز التى دعا بها إبراهيم ربه ، وتلك الأسس والركائز هى قواعد الملة التى قامت عليها شريعة إبراهيم . . وقد حقق الله دعاءه ، وأسماء الله مسلماً ، وسمى ذريته بالمسلمين (ملَّةَ أَبيكم إبْراهيمَ هو سمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ من قبْلُ) سمى الله من الأزل

« مسلماً » كل من اعتنق أسس هذه الملة وسار على مضامينها من إسلام لله وانقياد له وتوكل عليه وتسليم الأمر لمدبر الأمر ومصرف الكون .

ومن هذا يتضح أن وصف الإسلام ليس منصبًّا على كل من آمن بدعوة محمد فى عهد محمد أو من بعده فحسب بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل على كل من آمن برسوله الذى بعث فى زمنه ، وبكل من وحد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين .

والمسلم فى عرف القرآن هو كل من آمن برسوله وكل من وحد الله من الأزل حتى اليوم ؛ والمستتبع لآى القرآن يجد : (هو سمَّاكم المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ) . (فإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا) ، (ووصَّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويَعْقوبُ : يا بنيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لكُمُ الدِّينَ فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، (قالوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وإلَهَ آبائِكَ إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحٰقَ إلٰهًا واحدًا ونَحْنُ له مُسْلِمُون) . . كل شريعة قامت إنما قامت على التوحيد (ومَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ منْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِى إليْهِ أَنَّه لا إلٰهَ إلاَّ أنا فاعْبُدُونِ) . وكل رسول أرسل أو نبي بعث إنما دعا إلى الله وإلى دين الله .

ودين الله واحد ؛ حقيقته التوحيد وجوهره الإيمان بالله دون شريك أو نظير .

(إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلامُ) نادى بذلك كل رسول من لدن

إبراهيم ، ومن قبل إبراهيم (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نذِيرٌ) إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . وفى تفسير المنار يقول الإمام محمد عبده ص ٤٧٧ : « إن الدين واحد فى حقيقته ، وروحه التوحيد ، والاستسلام لله تعالى والخضوع والإذعان لهداية الأنبياء ، وبهذا كان يوصى أولئك النبيون آباءهم وأممهم ، فتبين أن دين الله تعالى واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى ولذلك قال فى آية أخرى : (شَرَعَ لَكُمْ من الدِّينِ ما وَصَّى به نوحًا والَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْك . . .) الآيات » .

ولقد استشكل على البعض عندما سمع قول الله سبحانه : (قَالَت الأَعْرَابُ آمنَّا ، قل لم تُؤْمِنُوا ، ولكن قُولُوا أَسْلَمنا ، ولما يَدْخُل الإِيمَانُ فى قُلوبكُمْ) فعدوا الإسلام فى مرتبة أقل من مرتبة الإيمان ، وسموا الإيمان الظاهرى إسلاماً أخذاً بظاهر هذه الآية الكريمة .

والإسلام بهذا الاتجاه يضعف معناه وبهذه التفرقة يهوى مفهومه .
إذ الحق أن لا فرق بين الإسلام والإيمان .
الإسلام الحقيقى فى عنفه وقوته هو الإيمان عن اعتقاد ويقين .

والمرء لا يسلم إسلاماً حقيقياً إيجابياً ذا فاعلية إلا إذا آمن فى قوة وإصرار وصمود وتفان . فالإسلام هو الإيمان (قلباً وقالباً) بالشريعة ومفاهيمها ومثلها ورسومها .

وبوقفة قصيرة عند تلك الآية الكريمة نراها قد نزلت فى شأن مجموعة

ألقت الضوء على داخليتهم ، فكشفت نفسية نفر من هؤلاء المنافقين المتفعين الذين يبتلى بهم المؤمنون فى كل زمان . . نفسية عفنة حقيرة صغيرة تريد أن تثرى وتغنم . . هدفها المادة والكسب فحسب ، ولو على حساب الخلق والضمير والشرف . . نزلت فى تبيان نفسية « بنى أسد » الذين مستهم مسغبة ونزلت بهم مجاعة فقرروا الهجرة إلى المدينة مستخفين تحت رداء الإسلام متظاهرين به . . وأتوا إلى رسول الإسلام محمد بن عبد الله عليه السلام يقولون فى تفاخر : لقد آمنا بك .

وسرعان ما كشف الله حقيقتهم لرسوله (قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) لم تؤمنوا : أثبت عليهم الكفر وعدم الإيمان إذ الإيمان تصديق وثقة وطمأنينة وأنتم خلو من ذلك .

ولكن زعمتم الإسلام ظاهرياً وادعيتموه تريدون عرض الحياة الدنيا !!

إسلامكم الظاهرى زعم ودعوى . وحديث فحسب ! !

والإسلام والإيمان بمعنى واحد وأنتم لم تؤمنوا ، بل لم يدخل الإيمان قلوبكم ولم تحسه أفئدتكم فأنتم لم تؤمنوا وكان إسلامكم الظاهرى بلسانكم كلا إسلام ولا إيمان .

فقد انكشف ستركم وظهر مستوركم وتعرت للرسول وللمؤمنين حقيقتكم فأنتم فى الحقيقة مراءون منافقون لا مسلمون ولا مؤمنون ! !

و بجانب هذا ملحظ آخر فإن الله نفى عنهم الإيمان بقوله : (قل لم تؤمنوا) ومع ذلك لم يثبت لهم الإسلام إذ قال : (ولكن قولوا أسلمنا) ، ولم يقل أسلمتم فلو كانوا مسلمين لقال : (ولكن أسلمتم) وآنئذ كانت ترد وتتأتى الفروق بين الإيمان والإسلام .

أما بعد أن قال الله ولكن قولوا . . فلم يثبت لهم الإسلام ولم يقرره لهم ، وهو العليم سبحانه بدخائل النفوس فلم يعد هناك والحالة هذه مجال للتفرقة بين الإيمان والإسلام .

يقول الألوسى فى تفسيره ص ١٦٧ حـ ٢٦ « قال مجاهد : نزلت هذه الآية (قالت الأعراب) فى بنى أسد بن خزيمة (قبيلة تجاور المدينة) أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، يروى أنهم قدموا المدينة فى سنة مجدبة فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان . . إلخ » .

* * *

وكلما ارتفع البناء . . ارتفع صوت إبراهيم بالدعاء . . ومضى سائلا ربه هو وولده قائلين : « أرنا مناسكنا . وعلمنا طرق العبادة ، ووفقنا للتوبة . ولرجوع إليك ، مبتعدين عن كل ما يشغلنا عنك . آيبين إلى ساحتك وعفوك . إنك أنت التواب الموفق المنحرفين عن سبيلك للرجوع إليك . الرحيم بالتائبين العائدين إلى رحابك » .

ثم تمضى الدعوة الإبراهيمية فى نطاق أوسع وأشمل وفى مجال أرحب وأفسح .

تعدت الدعوة مجال الذاتية والشخصية . . إلى مجال الإنسانية .

وهكذا النفس الإنسانية الخيرة لا تهدأ ولا تهنأ إلا إذا رأت الخير ضارباً بجرانه على الجميع .

فتجاوزت الدعوة إبراهيم . . إلى ولده إسماعيل . . ثم إلى ذريتهما من بعدهما .

سأل إبراهيم ربه أن يمن على نسله وذريته من بعده بأن يرسل فيهم منهم رسولا يوجههم الوجهة الدينية السليمة الصحيحة ويرصدهم أمور دينهم ودنياهم ليصلوا إلى الهدف وإلى الحق والله هو الحق المبين . رسول مرشد ومعلم وهاد وموجه يتلو عليهم آيات الله ودلائل قدرته ووجوده ووحدانيته . . فيقرءون ما سطر فى صفحات الكون من آيات الصنع وآثار الخالق

ودلائل الإيجاد . . ويبصرون ، ويلمسون ، ويحسون ، فيسلمون ويسلمون بالوحدانية والوجود .

ويعلمهم كتاب الله وما فيه من شريعة وحكمة . (وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أُوتِيَ خيرًا كثيرًا) .

كما يربيهم تربية عملية مثالية قوامها الفضائل والقيم فتزكو نفوسهم وتطهر دخائلهم وتطبع على الحق والحب والخير . وتختتم الدعوة بهذا الثناء الجميل : (إِنَّكَ أَنْتَ العزِيزُ الْحَكِيمُ) .

استجابة :

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام « وجعل فى ذريتهما أمة الإسلام . وبعث فيها منها خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام » (١) .

وكذلك بعد أن دعوا هذه الدعوة (ربَّنا وابْعَثْ فيهِمْ رسُولًا منهم) بعد قرون وأجيال « أجاب الله هذه الدعوة بخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم كما ورد فى حديث أحمد " أنا دعوة إبراهيم " » (٢) .

(أَرِنَا مَنَاسِكَنَا) « أرسل الله إلى إبراهيم ملكاً من السماء . فعلمه مناسك الحج ، فجعل إبراهيم يعلمها للناس كما تعلمها عن الملك ، وكما تعلمها الملك عن الله سبحانه » (٣) .

---

(١) ص ٤٧٠ منار . (٢) ص ٤٧٢ منار .
(٣) ص ٢٠ من كتاب « صور من حياة الرسول » .

وقد تقبل الله منهما واستجاب دعاءهما فجعل هذا البيت كعبة للناس يحجون إليه من فجاج الأرض وأوحى إلى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج إليه . قال إبراهيم وما عسى أن يبلغ صوتى إذ أنا أذنت يا رب ؟ فقال له ربه : إنما عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فارتقى إبراهيم جبلا عالياً وجعل ينادى بأعلى صوته : يأيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج إلى بيته فحجوا . فجعل صوته يدوى فى الآفاق فيسمعه كل من أراد الله له أن يحج فيقول : لبيك اللهم لبيك . وأقبل الناس على البيت طائفين يلبون النداء ويجيبون الدعاء ففرح إبراهيم فرحاً عظيما حين رأى الناس يقبلون من كل حدب ويجتمعون حول البيت أجناساً وألواناً فتمنى لو أن هذا المكان القفر قد صار بلداً عامراً بالخير آهلا بالسكان يأنس الناس إليه ويألفونه ويعيشون فيه إخواناً يحب بعضهم بعضاً ويأمن بعضهم بعضاً . فتوجه إلى الله يدعوه بقلب خالص : (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فأوحى الله إلى إبراهيم أنى جعلت هذا البيت حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء وجعلت مكة بلداً حراماً لا يحل فيها القتال ولا يصاد طيرها ولا حيوانها ولا يقطع شجرها ، وجعلت أشهر الحج أشهراً حرماً لا رفث فيها ولا فسوق ولا خصام ولا جدال .

بين إبراهيم ومحمد :

هى وشائج وصلات وأسباب وروابط .

وشائج متشابهة المعالم ترى فى حياة إبراهيم الخليل ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وصلات تجمع بينها مشابه واحدة فى حياة كل من الرسولين .

كلاهما فكّر وتأمل . . وعزف عن معبودات قومه وراح يتطلع إلى المعرفة وإلى الحق وإلى الهداية .

« لما شب إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه . . ثم رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها وكيف يخلعون على هذه القطع من الخشب كل تلك القداسة ؟ ساوره الشك فى أمرها . . وكان إبراهيم ممن يحترمون عقولهم ويريدون أن يحملوا الناس بالحجة على الاقتناع بآرائهم . فانتهز غفلة من الناس فذهب إلى هذه الآلهة فكسرها إلا كبيرها . فلما جيء به على أعين الناس قيل له (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبراهيمُ . قال بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهُم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) . وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر فى ضلال عبادة الأصنام وفيمن تجب له العبادة (١) » .

يقول القرآن مستعرضاً تلك الحقبة التفكيرية من حياة سيدنا إبراهيم :

(فلمَّا جنّ عليهِ اللَّيلُ رأى كوكبًا قال هَذَا ربِّى . فلمَّا أَفَلَ قال لا أُحِبّ الآفلِينَ . فلما رأى القَمَرَ بازغًا قال هذا ربِّى فلما أَفَلَ قال لئِنْ لَمْ يَهْدِنى ربِّى لأَكونَنَّ من القَوْمِ الضَّالِّين . فلما رأى الشَّمْسَ بازِغَةً قال هذا رَبِّى هذا أكْبرُ فلمَّا أَفَلَتْ قال يا قَوْمِ إنِّى برىءٌ ممَّا تُشْركون . إنِّى وجَّهْتُ وجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمواتِ والأَرْضَ حنيفًا

---

(١) ص ٤١ من كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل .

ومَا أَنا مِنَ المُشْرِكِينَ).

وكذلك كان محمد فى بادئ الأمر . . رأى قومه قد نسوا نسياناً تاماً دين التوحيد دين جدهم إبراهيم . . « واتخذوا لله شركاء من أصنام . . وكان لكل قبيلة . بل لكل أسرة صنم ، وأصبحت الكعبة مباءة لثلثمائة وستين صنما من خشب أو حجارة تعبد من دون الله ».

أنصاب وأزلام ، واستعمال للسحر والرقى . . كل هذا كان يهوى بعقلية القوم . «ذلك هو الضلال الذى أحزن محمداً وأرقه وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته وهو ضلال ليس فى طوقه إزالته . لأنه متأصل عميق ولأنه عام شامل وهو جالب ، لا محالة ، على مواطنيه عقاب السماء الرهيب يعصف بهم كما عصف بعاد وثمود ، لهذا كان يلجأ إلى الأماكن الخالية من البشر حتى لا يختلط بهم ، وحتى يزيل من ذاكرته شبح ما هم فيه من ضلال بشع أليم .

كان يستسلم إذن لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه وتتجه به نحو الوحْدة والعبادة فيسير فى الشعاب الرملية حسب منحنيات الوديان وتعاريجها ، أو يصعد الجبال الصخرية ليجلس على قمتها ويترك بصره وخياله يضلان فى الفضاء الجدب القاحل الذى يبدأ عند قدميه ثم يسترسل ويسترسل حتى يختفى فى لا نهائية الأفق .

وسط هذا الفضاء الشاسع المؤثر ، وهذا السكون الرهيب ، وهذا الضوء المتألق كان يجلس محمد ساكناً لا حراك به تمر عليه الساعات تلو الساعات وهو غارق فى تأمل وجدانى عميق صامت . . أجل ، لشد ما كان يروعه ويملأ نفسه هيبة هذا المنظر الرائع المتغير الفريد لعناصر الأرض والسماء الخاضعة لقوة خفية مجهولة هى أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تكتنه ، وأعلى من أن تتصور ، . . واحدة لا تعدد فيها عالمية شاملة . .

ها هى تلك التلال والصخور أمامه تتزين فى الصباح الباكر بالحلل

الوردية الشفافة .

وها هى تلك الشمس ترسل أول أشعتها على الحصى المنثور هنا وهناك فتصيره جواهر تتلألأ . . ثم ها هى تلك فى كبد السماء جبارة طاغية ترسل بالأكفان البراقة فتنشرها على الأرض . . وها هى ذى الأرض هامدة ساكنة مستسلمة كجثة لا حياة فيها . . وها هى تلك أمواج الذهب ترسلها الشمس على الكون عند غروبها فى سخاء كأنها تريد أن توحى إليه بالأسف لمغربها . . ثم ها هوذا طوق القمر الباهر يشبه طوق الحمام تنسجم فيه ألوان الطيف السبعة ويتألق فى وسطه القمر الذى يزهو بما يصدر عنه من شرر يتحول إلى الآلاف المؤلفة من النجوم والكواكب .

ها هى تلك الأعمدة المختالة تتلهى الرمال عند هدوء الجو بإقامتها راتية نحو القبة الزرقاء حتى إذا ما ثارت الأعاصير بعثت بالأتربة من بطون الأودية قاذفة بها فى هجوم عنيف على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق . . وها هى ذى قوافل الغنم تشبه الحراف البيض تطاردها الرياح حتى تبعدها عن قمم الجبال التى فوقها نشأت . فتضطر إلى الهجرة دون أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها . . وها هى تلك العواصف الممطرة تتفجر شآبيبها الهطالة فتصب على الجبال العريانة أنهاراً من المياه عنيفة جارفة لها دوى ولها زئير . .

أمام هذه العناصر الثائرة العاتية التى لم تجرؤ قط برغم جبروتها على عدم الخضوع ،ولو شروى نقير ، للقوانين التى تسيرها والتى فرضتها عليها القوة السامية العليا . .

لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وغرورها . . أجل وكم من سخرية فى أن تثق هذه الإنسانية فى المحسوسات فيقدم لها السراب صورة براقة من موجات الأثير الغائر ليشهدها بذلك على غرورها المطلق . . كانت الحاوة لمحمد أعظم من مربٍّ . فقد صقلت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ولذلك أطلقت عليه الآثار « صفاء الصفاء » وتشربت روحه

رويداً رويداً روح الصحراء فوصلته بعظمة الله اللانهائية . .

وفى الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته فى قوة حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من "كارلايل" المفكر الإنجليزى المشهور ، صيحة الإعجاب التى يقول فيها : «حقاً إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة . ومن الطبيعى أن تجتذب أفئدة بنى البشر ، فيستمعوا لها ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها . فكل ما عداها هباء إذا قورن بها . .

إن هذا التأمل ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة لتخرج منها مطهرة صافية . إنها مصنع تكتيل القوى الروحية برغم أنها خفية وأنها لا شعورية .

هذه القوى الكامنة التى تتكتل بالمراقبة والتأمل تمكث مستترة مجهولة حتى هؤلاء الذين تنطوى عليها جوانحهم ، وما مثلها فى ذلك إلا كمثل النار الكامنة فى أشجار الغابات فإذا ما أثارتها شرارة واحدة اشتعلت ، ملتهبة ، جارفة ، صاعدة إلى عنان السماء فتبهر العالم[1] ويقول الدكتور حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » : وطبيعى أن يترك محمد نفسه لسجيتها ، سجية التفكير والتأمل وأن يستمع إلى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم ، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم وأن يفكر ويتدبر وأن يكون أشد من قومه تدبراً وتفكيراً . . فبهذا الروح القوى الملهم . هذا الروح الذى أعدت الأقدار ليبلغ الناس من بعد رسالات ربه ويوجه حياة العالم الروحية الاتجاه الحق ، لا يمكن أن يظل مطمئناً إلى ما غرق

---

(١) بتصرف من كتاب « محمد رسول الله » ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والدكتو محمد عبد الحليم .

(٢) ص ٩١ .

الناس فيه إلى الأذقان من ضلال ، ولابد أن يلتمس فى الكون أسباب الهدى حتى يعده الله ليلقى عليه ما قدر فى الغيب من رسالته . ومع عظم توجهه لهذه الناحية الروحية وشديد تعلقه بها فإنه لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهان . ولا أراد أن ينصب نفسه حكما على نحو ما كان (ورقة بن نوفل) وأمثاله . هو إنما كان يريد الحق لنفسه ، فكان لذلك كثير التفكير ، طويل التأمل ، قليل الإفضاء لغيره بما يجيش فى نفسه من آثار تفكيره وتأمله .

وقد كان من عادة العرب — إذ ذاك — أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمناً فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمة ، وكان يسمون هذا الانقطاع للعبادة « التحنث » و « التحنف » وقد وجد محمد فيه خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، وكما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما كان شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما فى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حراء — على فرسخين من شمال مكة — غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعناً فى التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمساً الحق والحق وحده ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة ، لأن هذا الذى يرى فى الحياة التى حوله ليس حقاً . وهناك كان يقلب فى صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً . وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأحبار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشد ، بل فى هذا الكون المحيط به : فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء ساعات لهيبها المحرق ،

تحت ضوء الشمس الباهرة الألاء . وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر وأضواء النجوم بلباسها الرطب الندى . وفى البحر وموجه وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود .

فى هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا . . وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سره ، ولم يكن بحاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومه من شئون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقاً ، فما هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق . ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه ؟ ! وهبل واللات والعزى ، وكل هذه الأنصاب والأصنام القائمة فى جوف الكعبة أو ما حولها لم تخلق يوماً ذباباً ولا جاءت مكة بخير ! ! ولكن ! ! أين الحق إذن ؟ أين الحق فى هذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه ؟ أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث إلى الناس النور والدفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق ، حياة بالماء والنور والدفء ؟ كلا ! ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء . أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثير لاحد ولا نهاية له ؟ ولكن ما الأثير ؟ وهذه الحياة التى يحيا اليوم فتنقضى غداً ، ما أصلها وما مصدرها ؟ أهى مصادفة تلك التى أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها ؟ لكن للأرض وللحياة سنن ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها . وما يأتى الناس من خير أو شر أفيأتونه طواعية واختياراً ؟ أم هو بعض سايقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ فى هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء . وكان يريد أن يرى الحق فيها وفى الحياة جميعاً ، وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره ، وكل ما فى وجوده ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصبحها ومسائها فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها

تسائله تريد أن تطمئن إلى أنه بخير وعافية ، وإذا استدار العام وجاء شهر رمضان كرّة أخرى ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره ينضجه شيئاً فشيئاً وتزداد به نفسه امتلاء . وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التى ينشد . ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها . إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما إليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا . وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما ينقذ قومه من ضلالهم . ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حق . لكن فيه كذلك ألوان من الوهم ، وصور من الوثنية لا يمكن أن تتفق والحق المجرد البسيط الذى لا يعرف كل هذه المضاربات الجدلية العميقة ، مما يمعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب . وهذا الحق هو الله خالق الكون لا إله إلا هو . وهذا الحق هو أن الله رب العالمين . هوالرحمن الرحيم. وهذا الحق هو أن الناس مجزيّون بأعمالهم . (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ومنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَهُ) .

وأن الجنة حق والنار حق (إن الذين يعبدون من دون الله إلهاً آخر لهم جهنم وساءت مستقراً ومقاماً) .

وشارف محمد الأربعين وذهب إلى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى فى رؤياه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه . وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال . وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ويطيل الصوم وتثور به تأملاته فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ثم

يعود إلى خلوته . . ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤياه . ولقد طالت به الحال ستة أشهر حتى خشى على نفسه عاقبة أمره . فأسر بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى ، فطمأنته الزوج المخلصة الوفية وجعلت تحدثه بأنه الأمين » .

وهكذا نرى كلا من إبراهيم ومحمد ، لا يرتضى كل منهما ما يدور فى مجتمعه الدينى من عبادة وأصنام واهية ومن شطط وبعد عن المنطق والواقع .

ثم كانت الهداية . . وكانت الرسالة لكل منهما .

اصطفى المولى سبحانه إبراهيم وكرمه بالرسالة لقومه ، واصطفى من نسل إبراهيم ، محمداً وبعثه رحمة للعالمين . وكانت شريعته بعد أن تقدمت الإنسانية وارتقت البشرية فكانت خاتمة الشرائع للإنسانية وللبشرية وللعالم أجمع .

وكان كل منهما فى الوقت نفسه حريصاً على قومه وعلى نشدان الحقيقة وإيصالها إليهم .

ولما قام محمد بنشر دعوة ربه بين قومه ، لم يجد منهم بادئ الأمر إلا صداً وعذاباً فلم يزده ذلك إلا دعاء لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

وهكذا فعل إبراهيم مع قومه فكان حريصاً — وهو الذى لقى من قومه ما لاقى — على أن يوجههم الوجهة الدينية الانبعاثية .

ولا جرم فصلاح ذريته وفلاح قومه كان يملك عليه تفكيره ويشغل أقطار ذهنه . . كان يرنو إلى سعادهم ويرجو صلاحهم . . قال الله تعالى :

(إنى جاعلك للناس إماماً . قال ومن ذريتى) ، (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) .

* * *

وشائج وصلات بين إبراهيم ومحمد ستبقى إلى الأبد ما بقى الدين وما بقيت الصلاة والتحيات التى قرن فيها ذكر إبراهيم وآله بمحمد وآله « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد » .

ولا جرم . . فهم ذرية بعضها من بعض .

ذكر . . ودعاء . . وشكر

(فاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ . واشْكُروا لى ولا تَكْفُرونِ [١٢٥]).

* * *

رباط بين الخالق والمخلوق . . ووشيجة بين العابد والمعبود . ذلكم هو الذكر . الذكر الذى هو تفكر دائم وشكر دائب وابتهال وتمجيد لله الحميد المجيد .

والذكر عبادة ودعاء « وليس بعد كتاب الله عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخاصة إلى الله تعالى »(١)

وكثرة الذكر ركيزة الفلاح والفوز (واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لعلَّكُمْ تُفْلِحونَ) .

---

(١) ص ٢٠٩ إحياء علوم الدين للغزالى .

وكثرة الذكر طريق المغفرة والأجر (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً).

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ ، فأخبرنى بشىء ، أتشبث به ، قال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » .

إن الذى يذكر الله يذكره الله مصداقاً لقول الله : (فاذْكُرونى . . . أَذْكُرْكُم) .

اذكرونى وقت الرخاء . . أذكركم عندما تضيق الدنيا فى وجوهكم . .

اذكرونى بدوام العبادة . . أذكركم بكثرة التفضل ودوام الإحسان . .

اذكرونى فى الدنيا . . أذكركم فى الآخرة . .

اذكرونى بالتسبيح والتنزيه والتمجيد والدعاء . . أذكركم بتحقيق رغائبكم وإجابة دعائكم ومطالبكم .

اذكرونى : بألسنتكم تردد أسمائى ، وبعقولكم تتفكر فى خلقى ومخلوقاتى ، وبأفئدتكم تستشعر عظمتى وجلالى . . أذكركم وأهدكم وأنعم عليكم وأوفقكم ، وأرضى عنكم .

قال رسول الله : «يقول الله : إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه ، وإذا تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإذا تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا مشى إلىّ هرولت إليه » يعنى بالهرولة : سرعة الإجابة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تعالى ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل

تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم ، وهو أعلم ، : ما يقول عبادى ؟

يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك . فيقول : هل رأونى ؟

فيقولون : لا والله ما رأوك . فيقول : كيف لو رأونى ؟

يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . فيقول : فماذا يسألون ؟ يقولون : يسألونك الجنة . يقول : وهل رأوها ؟ يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . يقول : فكيف لو رأوها ؟ يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعوذون ؟ يقولون : يتعوذون من النار .

فيقول : وهل رأوها ؟ يقولون : لا والله ما رأوها . فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم » .

فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان عبد خطّاء إنما مرّ فجلس معهم .

فيقول : وله غفرت . هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .

قال ثابت البنانى (١) : « إنى أعلم متى يذكرنى ربى عزّ وجل . ففزعوا منه ، وقالوا : كيف تعلم ذلك ؟ قال : إذا ذكرته ذكرنى » .

بعض مواطن الذكر والدعاء :

(فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ [١٩٩]) . . .

---

(١) ص ٢٠١ من كتاب إحياء علوم الدين .

« يطلب من الحاج إذا اندفع من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام (جبل المزدلفة) بالدعاء والتكبير والتهليل والتلبية » (١)

(فإذا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا [٢٠١]).

(واذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ [٢٠٤]) .

« وأمر الله بأن يذكر عند المشعر الحرام ، وكانوا لا يذكرونه هناك . .

وأمر بذكره عند تمام قضاء المناسك بعد أيام منىً حيث كانوا يذكرون مفاخر الآباء . .

وأمر بذكره فى أيام منى : أيام التشريق الثلاثة : من حادى عشر ذى الحجة إلى ثالث عشر : وإنما أمر بالذكر فى هذه الأيام ولم يأمر برمى الجمار ، لأنه من الأعمال التى كانوا يعرفونها . ويعملون بها ، وقد أقرهم عليها . وذكر المهم الذى هو روح الدين ، وهو ذكر الله تعالى عند كل عمل من تلك الأعمال . وتلك سنة القرآن يذكر إقامة الصلاة والخشوع فيها ولا يذكر صفة القيام والركوع والسجود . وكون الركوع مرة والسجود مرتين . إنما يترك ذلك لبيان النبى صلى الله عليه وسلم له بالعمل . وبينت السنة أيضاً أن ذكر الله تعالى فى هذه الأيام هو : التكبير أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ، وعند رمى الجمار

وقد قالوا إن التلبية أفضل الذكر للحاج . ونص التلبية المأثور : « لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

---

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٣٣ .

وتكرار الأمر بالذكر يدلنا على أن المهم فى العبادة ذكر الله تعالى الذى يصلح النفوس وينير الأرواح حتى تتوجه إلى الخير وتتقى الشر والمعاصى . فيكون صاحبها من المتقين ثم يرتقى فى فوائد الذكر وثمراته فيكون من الربانيين »(١) .

قال بعض العارفين : الذكر على سبعة أنحاء : ذكر العين بالبكاء ، وذكر الأذنين بالإصغاء ، وذكر اللسان بالثناء ، وذكر اليدين بالعطاء ، وذكر البدن بالوفاء ، وذكر القلب بالخوف والرجاء ، وذكر الروح بالتسليم والرضاء .

* * *

وبعد هذه الجولة السريعة مع الذكر ، وهدفه ، وأجره ، ووقته ، ومرادفه . . . وبعد أن استبان أن الذكر هو الدعاء ، وكلاهما عبادة . تكون نتيجة تلك العبادة : « اذكرونى أذكركم » أى « ادعونى أستجب لكم » أمر بالدعاء . . ووعد بالاستجابة . واشكروا لى تحقيق دعواتكم ، وجزاءكم على عبادته ، ولا تكفروا فتحيدوا عن السنن وعن الطريق ، وعن العبادة ، وعن الدعاء « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

دعاء الصابرين

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمَراتِ وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [١٥٦] الَّذِينَ

(١) جمع بتصرف من ص ٢٤٠ ج ١ ص ٢٤٣ من تفسير المنار ج ٢ .

إِذَا أَصابتْهُمْ مُصِيبةٌ قالوا إِنَّا لله وإنا إِلَيْهِ راجِعون [١٥٧] أُولَئِكَ عليهم صلوات من ربِّهم ورَحْمَة وأُولئك هُمُ الْمُهْتدونَ [١٥٨]) .

ابتلاء واختبار ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وثبات وانهيار ، وصبر وجزع ، وأمن وفزع . .

تلك سنة الوجود فى الوجود . . وأحداث الحياة فى الحياة .

والصبر صمام الأمن ووجاء النفس من التدهور والانزلاق فى مهاوى اليأس وظلام القنوط . .

هو بارقة الأمل فى دنيا اليأس . . وإشراقة النور فى محيط الظلام .

تشتد الأمور ، وتتلاحق الخطوب ، وتتلاصق الغير والأحداث ، وتصغر الدنيا فى عين المرء فلا يعصمه إلا الصبر ولا يسنده إلا الثبات ولا يحميه إلا التحمل ، وسرعان ما تنجلى غمرة الحوادث عن فجر النصر بفضل الصبر ، وسرعان ما تنحسر موجة اليأس وتصل بالمرء إلى بر الأمن بفضل الصبر ، والصبر فضيلة تعرّى عنها القلوب الضعيفة الواجفة ، الهلعة الهشة . ولا تعمر إلا القلوب الكبيرة المؤمنة ، القلوب التى إذا ما مسّها الخوف أو أصابتها مصيبة تلوذ بالله وتلجأ إليه وتجأر بالدعاء وتهتف إنا لله . ومن الله ، وإلى الله . إنهم يفوضون الأمر لله فى تسليم مطلق لإرادته واعتراف كامل بمالكيته وحاكميته .

صلوات ورحمات إلهية جزاء وفاقاً لهؤلاء الصابرين أهل الله .

والصبر مدعاة للثبات ، والثبات من أقوى أسباب النصر ، لذا كان دعاء قوم « طالوت » المؤمنين الذين جاوزوا البحر معه حينما رأوا أعداءهم جنود جالوت « قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم

الكافرين[١] » . فهزموهم بإذن الله . . . واستجاب لهم ربهم حينما توجهوا إليه داعين ذاكرين . . وانتصر الإيمان بصبره وثباته على الكفر بأهله ورجله وعنفوانه وتطاوله .

مجيب الدعوات

(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون [١٨٦]).

الدعاء عبادة :

فإذا ما نزلت بالمرء جائحة أو حفت به ضائقة أو مسه مكروه ، أو أصابه شر أو ضر فزع إلى ربه وتضرّع إلى خالقه ؛ ليكشف الغمة ويزيل الضائقة ويدفع المكروه . .

ويبتهل . وهو خاشع خاضع . . يحسّ ضعفه الإنساني وقصاءته وجهده المحدود المجهود ، وحاجته إلى معونة القوى القاهر القادر . . ويتجه بعواطفه وكيانه . وكليته إلى ملاذه ومولاه سائلا إياه راجياً داعياً . وفي هذه اللحظات واللمحات يتصل بربه ومعبوده ، يتصل بالقوة الكبرى . . بالنور . بالعزة . يقول الغزالي ص٢٢٨ في كتابه إحياء علوم الدين : « والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عزّ وجل إلا عند إلمام حاجة ، وإرهاق ملمة : فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض . فالحاجة

---

(١) آية ٢٥٠ من سورة البقرة .

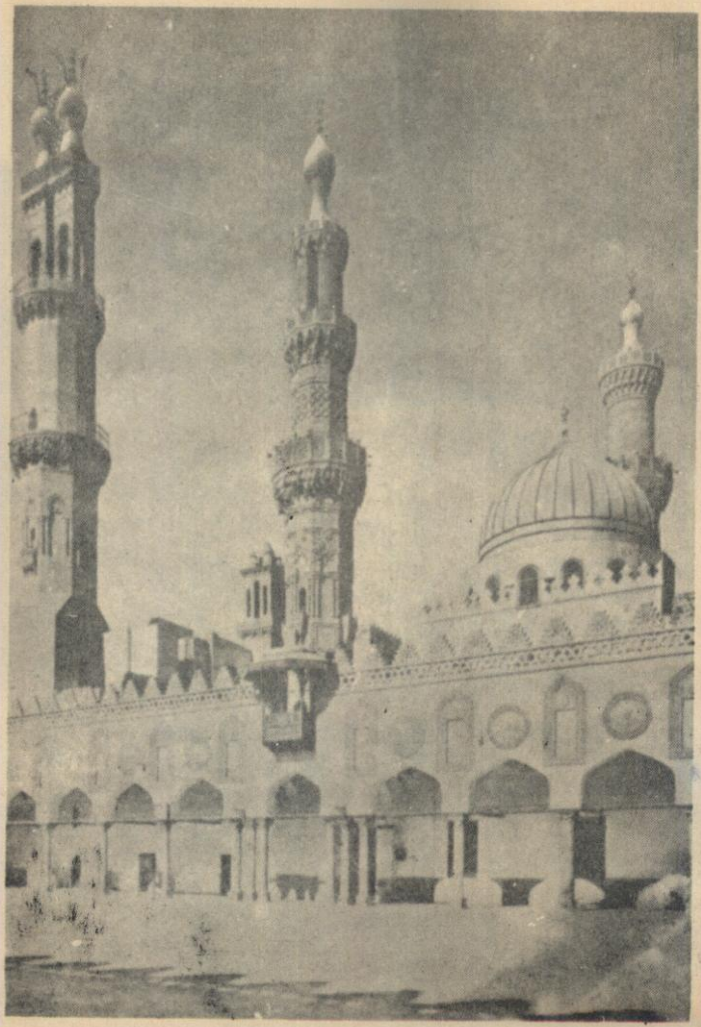

واجهة المؤخر على الصحن فى مسجد الأزهر

بيت الصلاة فى مسجد الأزهر من عهد المعز لدين الله.

تحوج إلى الدعاء ، والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذى هو أشرف العبادات » .

والقرآن بهذه الآيات السالفة يومئ إلى الرسول محمد ويرشده إلى كيفية تعليمه أتباعه هذه العبادة، فهى ليست مجرد كلمات تصعد إلى الله ؛ وليست ترنيمات صوتية يرددها راغب أو راهب . أو راج أو مضطر . بل هى عبادة : لها طقوس . ولها أركان . ولها روح . ولها شروط وآداب ؛ عبادة — ككل عبادة إسلامية — إن خلت من الروح كانت آلية لا غناء فيها . وإن تمت فى غير إطارها كانت كلا شىء . .

فالله قريب . . ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولىّ ولا وسيط يبلغه دعاءهم وعبادتهم ، فليتوجهوا إليه وحده بالدعاء ، وهو القمين بالإجابة . .

الله قريب . . محيط علمه بالكون ، بما فيه ومن فيه . يرى الأفعال ويسمع الأقوال . ويعرف دقائق الأحوال وخفيات النفوس ومكنونات الضمائر ومضمرات الأفئدة « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما علموا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم »(١) « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم »(٢) .

وهو قريب من عباده المؤمنين به . . وهو وحده الذى يجيب دعواتهم ويحقق رجواتهم . .

---

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٢) آية ٤ من سورة الحديد .

قال أبو عثمان النهدى : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » وها هو ذا رجل يأتى إلى الرسول ويقول : يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربى وأدعوه ؟ قال : « قل اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » ويقول أبو بكر للرسول : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

خطوط وخيوط :

ومن تلك الآية الشريفة السابقة نستطيع أن نستشف خطوط المخطط الدعائى والخيوط التى تنسجه . والاشتراطات التى أشارت إليها الآية . والتى بها يتحقق الدعاء : فالله يقول مخاطباً رسوله : « وإذا سألك عبادى » فلابد أن يكون السائل من عباد الله القائمين فى هذه العبادة بما يمكنهم من الانتساب إلى الله ونيل شرف عبادته . ولذا عبر القرآن « بعبادى » المنتسبين إلىّ ، لا عباد الشيطان . ولا عباد الأوهام ولا عباد الأهواء وأنّى يستجاب لهؤلاء الذين يعبدون المادة ويمدون أيديهم لمن لا يعرفونه ؟

وكيف يجد لنداءه جواباً من يطلب من الله ويعبد غيره ؟

ولا غرو فهو يقول « إذا دعانى » أى خصنى بالدعاء والتجأ إلىّ التجاء حقيقياً بحيث ذهب عن نفسه إلىّ وشعر قلبه بأنه لا ملجأ له إلا إلىّ . ومثل هذا لا يطمع فى غير مطمع . ولا يطلب ما لا يصح أن يطلب . وإنما يمتثل أمر الله تعالى باتخاذ جميع الوسائل من طرقها

الصحيحة »(١) . أما عبيده فقد قال الرسول عليه السلام : « إن ربكم حيي كريم يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفراً » .

وها هي ذي الآية تشقق لنا شريحة من شرائح الدعاء عندما تقول « فليستجيبوا لي » .

والاستجابة لله إنما تكون بطاعته ، والحفاظ على شرعه وشريعته . والعمل وفق سننه وسنته . أما من يخالف ولا يستجيب فكيف يستجاب دعاؤه ؟ يقول الرسول — في معنى حديث له : إن المرء يمد يديه إلى السماء ويقول يا رب يا رب وملبسه حرام ومطعمه حرام فأنى يستجاب له ؟

ثم تمضي الآية كاشفة عن روح الدعاء عندما تقول « فليؤمنوا بي » فهي تقرر أن روح الدعاء هو الإيمان ، لا مطلق الإيمان . . ولكن الإيمان بالله . . بمجيب الدعاء .

أما من يؤمن بغيره ، أو من لا يؤمن إطلاقاً ، أو من يكفر به . . فهؤلاء جميعاً دعاؤهم هباء « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

مؤمنون . . .

(آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إِلَيْه مِنْ رَبِّه . والمُؤْمِنُون كلٌّ آمنَ باللهِ وَمَلائِكَتِه وكُتُبِهِ ورُسُلِه لا نفرِّقُ بينَ أَحد من رُسُلِهِ وقالوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربَّنَا وإِلَيْكَ المصير [٢٨٥]

---

(١) ص ١٧٠ ج أول من تفسير المنار .

لا يكلِّف الله نفسًا إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَت ربَّنا لا تؤاخذنا إنْ نَسِينا أو أخْطَأْنَا ربَّنا ولا تَحْمِل علينا إصْرًا كما حَمَلْتَه على الَّذِينَ منْ قَبْلِنَا . ربَّنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ واعْفُ عنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا ، أَنْتَ مولانا فانْصُرْنَا على الْقَوْمِ الْكافِرِين [٢٨٦]).

* * *

خيط واحد يسلك فى عداده الرسول والمؤمنين جميعاً . . ودائرة واحدة تضم فى إطارها الرسول وأتباعه ، ذلك الخيط هو الإيمان بالملائكة سفراء بين الله وبين الرسل من البشر يبلغونهم رسالات ربهم . وتلك الدائرة هى دائرة الإيمان العام بسائر الكتب والرسل . . الإيمان بهم جميعاً بدون فرق ومن غير استثناء ، ما علم من أمرهم تفصيلا أو إجمالاً . بما قصّه الله من أمرهم على رسوله وبما لم يرد ذكر إلهى للرسول عنهم . .

(ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسلاً من قَبْلِكَ منهم من قَصَصْنَا عَلَيْكَ ومِنْهُمْ منْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [٧٨ ـ غافر]

(قُلْ آمَنَّا بالله وما أُنْزِلَ علينا وما أُنْزِلَ على إبْراهِيمَ وإسماعيلَ وإسْحَقَ ويعقوبَ والأَسباطِ. وما أُوتى موسى وعيسى والنبيُّونَ من ربِّهم لا نفرق بين أَحدٍ منهم ونَحْنُ له مُسْلِمون) [٨٤ ـ آل عمران] .

السمع والطاعة من صفات المؤمن الداعى ومن سمات السائل الراجى فلا جرم أن قال المؤمنون حينما بلغتهم دعوة الداعى إلى الله أن قالوا : سمعنا الدعوة بوعى وتدبر ، وأطعنا الله والرسول فعملنا وحاسبنا أنفسنا قبل أن نحاسب ، فاستعرضنا العمل وحاسبنا الضمير . . وظهر لنا التقصير . . فسألنا ربنا قائلين « غفرانك ربنا وإليك المصير » . .

والنفس البشرية معرّضة للخطأ والخطل غير معصومة من النسيان والزلل والمؤمن من يبغى الكمال فى عمله ، حتى ينال ما أعده الله للعاملين ، فهو يحاول جهده أن يصل للكمال ، غير أن طبيعته كبشر ، وكإنسان ، توقعه أحياناً فى المحظور ، أو تطغى عليه بشريته فتحيد به عن السنن والسنن « وما سمى الإنسان إلا لنسيه » لذلك كانت رجوات المؤمنين من ربهم ألاّ يحاسبهم على النسيان ، وألا يؤاخذهم على الخطأ .

ومن رحمة الله لأمة محمد أنه رفع عنها وزر النسيان وإثم الخطأ كما قال محمد : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » فإذا ما دعا المؤمنون ربهم ذلك الدعاء السالف كان ذلك منهم زيادة فى الترقّى والكمال ، ومبالغة فى الحيطة والحذر ؛ فهم يسألون ربهم أن لا يوقعهم فى الخطأ والنسيان المعفو عنهما ، فضلا عن الممنوع والمحظور المعاقب عليهما حتى يباعد الله بينهم وبين ما يشمّ منه رائحة الزلل . .

وفى تفسير الجمل على الجلالين ص٢٣٨ عند قوله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا » قال « قولوا ربنا لا تؤاخذنا : وهذا تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء ، وهذا من غاية الكرم ، حيث يعلمهم الطلب ليعطيهم المطلوب ».

ويقول الطبرى (ص ١٣٢ جـ ٦) فى تفسير تلك الآية : « وهذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه وما يقولونه فى دعائهم إياه : ومعناه : قولوا ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا شيئاً فرضت علينا عمله

فلم نعمله . أو أخطأنا فى فعل شىء نهيتنا عن فعله ففعلناه على غير قصد منا إلى معصيتك . ولكن على جهالة منا به وخطأ . .

« ربنا ولا تحمل علينا إصراً وعهداً فنعجز عن القيام به ، كما حملته على الذين من قبلنا الذين كلفوا أعمالا وأخذت عهودهم ومواثيقهم على القيام بها فلم يقوموا بها فعوجلوا بالعقوبة . فعلّم الله عز وجل أمة محمد صلى الله عليه وسلم الرغبة إليه بمساءلته ألا يحملهم من عهوده ومواثيقه على أعمال إن ضيعوها أو أخطأوا فيها أو نسوها مثل الذى حمل من قبلهم فيحل بهم بخطئهم فيه وتضييعهم إياه مثل الذى حلّ بمن قبلهم » .

ويقول الإمام محمد عبده (فى تفسير المنار ج ٣ ص ١٥٠) « وفى تعليمنا هذا الدعاء بشارة بأنه تعالى لا يكلفنا ما يشق علينا كما صرح بذلك بعد فى قوله (ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج » وهو يتضمن الامتنان علينا وإعلامنا بأنه كان يجوز أن يحمل علينا الإصر وأنه يجب علينا شكره لذلك . وحكمة الدعاء بذلك الآن استشعار النعمة والشكر عليها » .

وما زالت آيات الدعاء هذه تعيش بالمؤمنين فى جوّ الدعاء ، وترشدهم إلى كيفيته وتدعوهم إلى أن يقولوا : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ولا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق القيام به لثقل حمله علينا ، وأعنا على حمل ما حملتنا ووفقنا إلى النهوض به كما تحب وترضى . حتى لا نفرط فنتحمل عقوبة المفرطين ، ولا طاقة لنا عليها . .

واعف عنا : ارفع عنا آثار كل تقصير ، وامحُ عنا كل إثم .

واغفر لنا : بستر زلاتنا .

وارحمنا : « تغمدنا منك برحمة تنجينا بها من عقابك ، فإنه ليس بناج من عقابك أحد إلا برحمتك إياه دون عمله ، وليست أعمالنا منجيتنا

إن أنت لم ترحمنا ، فوفقنا لما يرضيك عنا ويرحمنا » [١] .

قال الرسول فى معنى حديث له : لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » . .

أنت مولانا : وولىّ كل مؤمن طائع ، ونحن حزبك . .

فانصرنا على القوم الكافرين : الجاحدين ألوهيتك ووحدانيتك ، المطيعين للأباطيل والمذعنين للأهواء . .

« [٢] . . إن الله تعالى ما علمنا هذا الدعاء لأجل أن نلوكه بألسنتنا ونحرك به شفاهنا فقط ، كما يفعل أهل الأوراد والأحزاب بل علمنا إياه لأجل أن ندعوه به مخلصين له . لاجئين إليه بعد أخذ ما أنزله بقوة ، والعمل به قدر الطاقة واستعمال ما يصل إليه كسبنا من الوسائل والذرائع التى هى وسائل الاستجابة فى الحقيقة . فمن دعاه بلسان مقاله ولسان حاله معاً فإنه يستجيب له بلا شك . ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان مع مخالفة الأحكام وتنكب السنن فهو بدعائه كالساخر من ربه الذى لا يستحق إلا مقته وخذلانه . .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بين لنا سبب المغفرة والعفو وهدانا إلى طريق الغلبة والنصر فأعرضنا عن هدايته وتنكبنا سننه . خليقته ثم طلبنا منه ذلك بألسنتنا دون قلوبنا وجوارحنا أفلا نكون نحن الجانين على أنفسنا ؟ . . وتوقف الدعاء على العمل يستلزم توقفه على العلم فلا يكون الداعى داعياً حقيقة كما يحب الله ويرضى إلا إذ كان قد عرف ما يجب عليه من الشريعة وسنن الإجماع واتبعها بقدر استطاعته » . . .

---

(١) الطبرى جـ ٦ (ص ١٣٥) .

(٢) ص ١٥٢ جـ ٣ من تفسير المنار .

من سورة آل عمران :

الراسخون فى العلم

(هو الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ منْهُ آياتٌ مُحْكَمَات هنَّ أُمُّ الْكتَاب وأُخَر متشابِهَات ، فأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغ فيتَّبِعون ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تأْوِيله وما يَعْلَمُ تأْوِيلَهُ إلا اللهُ والرَّاسِخونَ فى العِلْم يقولُونَ آمنَّا به كلٌّ من عند ربِّنا وَمَا يذَّكَّر إلا أُولو الأَلْبَاب [٧] ربنا لا تُزغ قلوبنَا بعد إذْ هَدَيْتَنَا وهَبْ لَنَا مِنْ لدُنْكَ رَحْمَةً إنَّك أَنْتَ الوهَابَ [٨] ربَّنا إنَّك جامعُ النَّاسِ ليوْمٍ لا رَيْبَ فيه إنَّ الله لا يخلفُ المِيعَادَ [٩]) .

* * *

فى كتاب الله الكريم آيات محكمات . . واضحة الدلالة ، بينة المفهوم والمقصد هى أصل هذا القرآن الكريم . .

وبجانبها آيات أخر . . تدقّ على الأفهام ، متشابهة ، تعجز العقول عن إدراك مراميها ، ومعانيها المرادة . .

وهذا سرّ من أسرار الإعجاز القرآنى أن ترتقى بعض معانى الآيات على الأفهام على كرّ العصور ومرّ الأيام ويقف التقدّم العلمى والعقلى إزاءها عاجزاً مبهوراً .

ومرضى القلوب يتصيدّون تلك الآيات المتشابهة : التى تشتبه مدلولاتها على التصوّر البشرىّ محاولين أن يثنوا بها فريقاً عن طريق الله . وأن يبعدوهم عن الإيمان ، وأن يفتنوهم بما يلقون إليهم من تأويلات لهذه الآيات المتشابهة تزلزل داخليتهم وتهزّ كيانهم الدينى وتشككهم فى معتقداتهم .

أما الراسخون فى العلم ، الذين علموا أن العقل البشرى محدود الإدراك . ليس فى مكنته مهما ارتقى واستنار أن يصل إلى اللب والأعماق . ولا أن يستكشف أو يستشف . . .

وليس فى متناوره أن يصل وحده إلى الهدف . . وإلى الحقيقة والمراد . . وأنه أحياناً ما تهبّ عليه أعاصير فكرية تحيد به عن الجادّة وتقوده إلى الضلال وتسوقه إلى الهاوية . .

وأنه لا بدّ له من مدد إلهى يعينه ويهديه سواء السبيل ويكشف له ما دقّ وخفى عليه . هؤلاء الراسخون . يعلمون أن ربهم أعلم بمراده من هذه الآيات المتشابهة ، وأن فوق كل ذى علم عالم ، وأن علمهم محدود . . وأنه من العلم ألا يخوض الإنسان فيما لا يعلم . لذا يقولون آمنا بالمتشابه ، آمنا به إيماناً مطلقاً ولا نعلم معناه ، وكل من المتشابه والمحكم من عند ربنا .

ثم تنطلق ألسنتهم وقلوبهم فى ابتهال إلى الله أن يثبتهم على الحق ،

وألا يزيغ قلوبهم بعد الاهتداء . وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله ويتذكرون يوم الجمع الذى لا ريب فيه ، والموعد الذى لن يخلفه الله .

ويقول أبو السعود فى تفسيره : « ومقصودهم بهذا الدعاء عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة ، وأنها المقصد الأسنى عندهم » .

ويقول تفسير الجلالين : « والغرض من الدعاء بذلك : بيان أن همهم وأمر الآخرة . ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها »(١) .

عباد الله

(. . . واللهُ بصير بالعِبَاد [١٥] ، الَّذِين يقولون ربَّنا إنَّنا آمنَّا فاغْفرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١٦] الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والْقَانِتِينَ والْمُنْفِقِينَ والْمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحَارِ [١٧]).

* * *

عباد الله :

هم المؤمنون المثاليون الذين حسنت صلتهم بأنفسهم وبالخلق والخالق .

● هم كما وصفهم بارئهم : الصابرون عن المعصية وعلى الطاعة : عن المعصية بمحاربتها ومجانبتها . وعلى الطاعة بتكاليفها والتزاماتها . .

● الصادقون فى عقيدتهم ومعاملاتهم .

● القانتون : الخاضعون لله وحده .

● المنفقون : الباذلون أموالهم فى أوجه النفع والبر والخير والصالح العام .

● والمستغفرون بالأسحار . . فى هدأة الليل وقبيل ميلاد الفجر حيث تنام العيون إلا عيون المتهجدين .

---

(١) ص ٢٤٥ ج ١ .

● هؤلاء العباد . . يعملون . . ويرجون ويخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون .

● يؤرقهم ما ارتكبوا من لمم أو زلل . ويقلقهم سوء الخاتمة .

● هدفهم مغفرة الرب وهمهم النجاة من عذاب الله .

● لذا يطلبون غفران الذنب ويطمعون فى الثواب يوم الحساب .

فلا جرم أن كان ترددهم : « اللهم لا تردنا بعقوبتك . ولا تؤاخذنا بتقصيرنا عن رضاك ، قليل أعمالنا تقبل . وعظيم خطايانا تغفر . أنت الله الذى لم يكن شىء قبلك ، ولا يكون شىء بعدك ، ولىّ الأشياء . ترفع بالهدى من تشاء . لا من أحسن استغنى عن عونك . ولا من أساء . ولا من استبد بشىء من حكومتك وقدرتك ، فكيف لنا بالمغفرة وليست إلا فى يديك ؟ وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك ؟ يا حفيظ لا ينسى وقديم لا يبلى ، وحىّ لا يموت . بك عرفناك . وبك اهتدينا إليك ولولا أنت لم ندر ما أنت سبحانك وتعاليت » (١) .

دعاء للداعية

يحزّ فى نفس كل داعية أن لا يجد لدعوته صدى فى القلوب . . ! !

ويعزّ عليه أن ينأى الناس عن دعوته ويميلوا عن اتباعه ونصرته . ولا سيما إذا كان مخلصاً فيها مؤمناً بها متفانياً فى سبيل نشرها . .

وفى فجر الدعوة الإسلامية ، والوثنية متحكمة والجاهلية متغلبة متمكنة . عز على الرسول محمد أن يجد رءوس قومه منحرفة عنه . وآذانهم لا تتلقف دعوته ، وقلوبهم لا تتقبل هديه وإرشاده . يعزفون عن سماع ما جاء به .

---

(١) ص ٢٠٠ ج ٢ من العقد الفريد .

وهو الحق من ربه ، فنال ذلك من نفسيته مما دعا القرآن أن يقول له : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وأن يقول له كذلك : « ولا تحزن عليهم » وإلى أن يسليه بقوله كذلك : (إِنَّكَ لا تَهْدِى من أَحْبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ) ، (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) .

وكانت أيضاً تلك الآية التى تخاطب محمداً (قل اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ منْ تَشاءُ وتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تشاءُ ، وتُعِزُّ منْ تشاءُ وتُذِلُّ منْ تشاءُ بيدكَ الخيْرُ إِنَّكَ على كلِّ شىءٍ قدير [٢٦] تولجُ اللَّيلَ فى النَّهار وتولجُ النَّهارَ فى اللَّيل وتُخرِجُ الحىَّ من الميِّتِ وتُخْرِج الميِّتَ من الحىِّ وترزقُ من تشاءُ بغَيْرِ حِساب [٢٧]) .

كانت هدياً وتوجيهاً ، ودعاء للداعية محمد يردده حتى تهدأ نفسه : يا محمد إن رأيت قومك قد عموا وصموا عن سماع هديك ووحى ربك ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وأقاموا على كفرهم ، فافزع إلى ربك وتوجه إليه بذلك الدعاء مسلماً الأمر له ، وله وحده ، فهو الذى يمنح الهداية لمن يشاء ويمنع عنها من يريد ، يعز بالهداية أقواماً ويذل بالغواية آخرين .

لا سلطان لأحد عليه ، بيده الأمر يرزق من يشاء بغير حساب ،

يعزّ ويذل يمنح ويمنع يرفد ويفيض . . ويقبض ويبسط وهو على كل شيء قدير . . له المشيئة التامة والتصرف الكامل والملكية المطلقة يصرف أمور الخلق . . والكون، كما يتصرف فى الليل والنهار بالزيادة والنقصان فى الصيف والشتاء .

فتسلّ يا محمد ، واصبر وترنم بتلك الترنيمة القدسية .

وهوّن عليك يا نبى الله ، فسيخرج الله من أصلاب هؤلاء الكفرة الفجرة ذوى الأفئدة الميتة والضمائر المريضة ، سيخرج منهم مؤمنين ، أرواحهم حية وضمائرهم نقية وقلوبهم مشرقة ونفوسهم مطمئنة باليقين . . كما يخرج الجاهل من نسل العالم الصالح والشرير من صلب الخير المستنير .

يقول الإمام محمد عبده (ص ٢٧٠ حـ ٣ تفسير المنار): « كأن الله يقول لرسوله : إذا تولى هؤلاء الجاحدون عن بيانك ولم ينظروا فى برهانك ، وظل المشركون منهم على جهلهم وأهل الكتاب فى غرورهم فعليك أن تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه بالدعاء والثناء وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل ما يشاء ».

دعاء امرأة عمران

(إِذْ قَالَت امْرَأَةُ عِمْرَانَ ربِّ إِنِّى نَذَرْتُ لك ما فى بَطْنِى مُحرّرًا فتَقَبَّل منِّى إِنَّك أَنت السَّميعُ العليم [٣٥] فلما وضعتْها قالَتْ ربِّ إِنِّى وضَعْتُها أُنثى والله أَعلم بما وضَعَتْ وليس الذَّكَرُ كالأُنْثَى وإِنِّى سَمَّيْتُها مَرْيمَ ، وإِنِّى أُعيذُها بِكَ وذرِّيتَها من الشَّيْطان الرَّجيم [٣٦] فَتَقَبَّلَهَا

ربُّها بقَبُول حَسَنٍ ، وأنبتها نباتًا حَسنًا وكَفَّلَهَا زكريَّا ، كلما دَخَلَ عليْهَا زكريَّا المحرابَ وجَدَ عِنْدَهَا رزقًا . قال يا مَرْيمُ أنَّى لكِ هذا ؟ قالت : هو مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنّ اللهَ يَرْزُقُ من يَشاءُ بغيرِ حِسَابٍ [٣٧])

يكشف لنا هذا النصّ القرآنى عن قلب « امرأة عمران » أم مريم وما يعمره من إيمان وما يغمره من يقين . . إذ ابتهلت فى دعاء خاشع تسأل ربّها أن يتقبل نذرها : وهو ذلك الجنين الذى لما ير النور . . نذرته وهو فى أحشائها خالصاً لله ولخدمة بيت الله . محرراً من كلّ قيد إلا قيد العبودية لله . .

وظلت فترة حملها تعيش على الأمل . . أمل أن يكون جنينها ولدا ذكراً . .

فالنذر للمعابد لم يكن معهوداً وقتئذ إلا للصبيان ؛ ليخدموا المعبد وينقطعوا للعبادة . ووضعت حملها . . وألفته على غير ما رجت وأملت . .

وفى دعاء حزين ومناجاة تنضح بالأسى والاعتذار تبتهل إلى بارئها وتقول :

ربّ إنّى وضعتها أنثى . . وأنت أعلم بما وضعت ، وليس الذكر الذى كنت أرجوه كالأنثى التى وضعتها . . وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

وكان نتيجة هذه الرغبة الإيمانية وجزاء هذا الإيمان الذى عمر قلب الأم وغمر وجدانها أن تقبل الله الوليدة بقبول حسن . . وخصّها بمميزات

لم تكن لغيرها، فأعدّها لاستقبال نفخة الروح وكلمة الله بمولد عيسى ابن مريم على غير مثال فى الخلق . وأنبتها نباتاً حسناً فجعلها تعيش فى حضانة الطهر والسمو . . حضانة النبى زكريا والد يحيى عليهما السلام . . إذ توفى أبوها عمران وكانت مريم آنئذ صغيرة تحتاج إلى من يكفلها ويقوم على عنايتها ورعايتها فقدمتها أمها إلى رعاة الهيكل ، فتنازعوا : أيهم يكفل مريم . . ولما ألقوا القرعة على ذلك ، كان الكافل لها زكريا ، والد يحيى عليهما السلام .

دعاء زكريا

تحركت فى نفس زكريا الشيخ تلك الرغبة الفطرية الدفينة فى كل نفس . . الرغبة فى الذرية . . الرغبة فى الخلف . الرغبة التى لا تموت حتى فى نفوس العباد الزهاد الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للمعابد .

إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها لحكمة عليا فى امتداد الحياة وارتقاء الحياة على امتداد الأجيال :

(هُنَالِكَ دَعا زَكَرِيَّا ربَّه قال : ربِّ هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيةً طيِّبةً إنَّكَ سميعُ الدُّعاء [٣٨] فنادَتْه الْمَلائِكَةُ وهُو قائم يصلِّى فِى المحراب أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقًا بكَلِمَة منَ الله وسيِّدًا وحَصُورًا ونبيًّا من الصَّالِحِينَ [٣٩]

قال : ربِّ أَنَّى يكونُ لِى غلام ، وقد بلَغَنِىَ الْكِبَرُ وامْرَأَتِى عاقرٌ قال : كذلك اللهُ يفْعَلُ ما يشاءُ [٤٠] قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رَمْزًا واذْكُرْ ربَّكَ كثيرًا وسبِّحْ بالعَشِىِّ والإبْكارِ [٤١]) .

* * *

لقد كان زكريا يعرف أنه شيخ طاعن فى السن وأن امرأته عاقر ، ولكن الرغبة الفطرية جرفته ، فتوجه إلى الله بالدعاء ، فنادته الملائكة ، لقد استجيبت الدعوة من ذلك القلب الطاهر فى لحظة اللهفة والتوجه إلى الله بحرارة . .

« (١) كان يخشى على بنى إسرائيل أن يبتلوا بمواليه الذين يلون الرياسة فيهم بعده ؛ لما يعلم من حالهم ، وعدم استمساكهم بالشريعة ، فحفزه ، ما يراه من إكرام الله تعالى لمريم ، على أن يطرق باب الدعاء لله ؛ ليرزقه ذرية ؛ ليذهب من الدنيا مطمئناً . وكان يناجى ربه بما فى نفسه ، (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله(٢) ، وسيداً ، وحصوراً(٣) ونبياً من الصالحين) . فراجع زكريا قائلاً : أنى يكون لى ولد وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ . فقيل له : كذلك الله يخلق ما يشاء ، فسأل الله آيةً على أن ذلك سيكون . . وأعلمه الله أن آية ذلك أن يعجز عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام لا يكلمهم إلا رمزاً . وكان ذلك » .

---

(١) من كتاب « قصص الأنبياء » لعبد الوهاب النجار ص ٣٦٨ .

(٢) أى مصدقاً بالرسول « عيسى بن مريم » الممثل لكلمة الله .

(٣) يحصر نفسه دون الشهوات .

الحواريون

الحواريون : هم أنصار المسيح عيسى بن مريم، عليه السلام، وخاصته الذين استجابوا له ولدعوته. وبنو إسرائيل: هم قومه الذين نشر بينهم دعوة ربهم وربه وأذاع فى مجاليهم كلمة الحق ، فأعرضوا وعاندوا ! !

(فلمَّا أَحسَّ عيسَى منهُمُ الْكُفْر ، قال : مَنْ أَنْصَارِى إِلى اللهِ ، قال الحواريُّون : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمنَّا باللهِ ، واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [٥٣] ربَّنا آمنَّا بما أَنزَلْتَ واتَّبعْنَا الرَّسول ، فاكْتُبنا مع الشَّاهِدِينَ [٥٤]) .

ولما وجد عيسى تيار العناد يقوى ويشتد ، وموجات الإنكار تعلو وتزيد ، وبوادر الكفر تسرى فى قوة بين بنى إسرائيل تدعو إلى الكفر به وبرسالته وبمرسله ، وإلى الإنكار والجحود لآياته ومعجزاته ، آنئذ جأر عيسى عليه السلام بدعوته وصيحته : من أنصارى إلى الله ؟ ومن نصيرى للتمسك بعقيدة الله ؟

فلباها تلاميذه وحواريوه الذين آمنوا به وتتلمذوا له وتعلموا منه . . وأعلنوها — وهم القلة وسط جحافل الشرك — أعلنوها عالية مدوية : نحن أنصار الله . آمنا بالله ، واشهد يا عيسى بأنا مسلمون .

ثم كان دعاؤهم : ربنا آمنا بما أنزلت من حق . . ومن رسول . . ومن كتاب ، شهدنا بوجودك وبوحدانيتك . . وأسلمنا وجهنا وضميرنا وأمرنا

لك دون سواك . فاكتبنا يوم القيامة مع الشاهدين . ومع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ظلم . . وذكر . . وغفران

(والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ . وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ ، ولم يُصِرُّوا على مَا فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمُون [١٣٥] ، أُولئكَ جزاؤُهُمْ مغفِرةٌ من ربِّهِمْ وجنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها ونِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [١٣٦]) .

* * *

ترسم هذه الآية لوحة واقعية الظلال . . إنسانية المشاعر . . إلهية الأهداف . لوحة ظلاما : خطيئة وظلم وإثم ، ثم ذكر ورجوع وتوبة وإنابة واستغفار ، ثم مغفرة وعفو ورضوان .

فالمرء — بحكم بشريته وآدميته — يقترف الذنب ويرتكب المنكر ويقع فى المحظور . يتخطى الحدود وينتهك الحرمات . ويزل . . ويضل . ويظلم نفسه بما اجترح . . وبما ارتكب ! !

ولكن إذا ما استيقظت فى الإنسان إنسانيته الأصيلة . وتنبهت مشاعره الحقة . وبخاصة وقت اقتراف الذنب فتذكر ربه وعزته وعظمته . . تذكر قوته وقهره وسلطته وسلطانه .

تذكَّر بعد أن تغلب فيه جانب العقيدة العفيفة على جانب الشهوة الجامحة، تذكر . . فعاد . . ورجع .

فكان الذكر له طوق نجاة أبعده عن تيار الخطيئة وعاد به إلى الحظيرة وأسلمه ذكر ربه إلى الإنابة إليه واستغفاره .

والاستغفار طلب المغفرة . . والطلب دعاء ، فالاستغفار دعاء ودعاء مأمور به .

وها هي ذي آيات كثيرة من القرآن تطلب منا الاستغفار وتدعونا إليه :

(واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) . (واسْتَغْفِروا الله إن الله كَانَ غفوراً رحيماً) . (فسبِّحْ بحمْدِ ربِّك واسْتغفِره إنَّه كان توابًا) . (ومن يَعْمَلْ سُوءًا أو يظلِمْ نَفْسَه ثم يستَغْفِرِ الله يجدِ اللهَ غَفُوراً رحيمًا) ، (وما كان الله معذِّبهُمْ وهم يَسْتَغْفِرون) .

وها هي ذي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تغرى بالاستغفار وتحث وتحض عليه لما له من أثر وفعالية :

يقول الرسول : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » وقال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر

ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى ، فاغفر لى . . فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويقول الرسول الكريم : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

وفى الإحياء للغزالى : « قال قتادة : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، أما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار » .

وكل هذا الجزاء والأجر مشروط بشرط وهو العزم والإصرار على عدم الرجوع إلى الوحل وإلى الخطيئة ، وأن تكون التوبة نصوحاً والإنابة لا نكسة فيها . . وأن يكون الاستغفار باللسان وبالجنان .

أما إذا كان كلمات تردد . . كان الاستغفار اللسانى ذنباً يحاسب عليه .. قال الغزالى[1] : « قال الربيع بن خيثم رحمه الله لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه ، فيكون ذلك ذنباً وكذباً إن لم يفعل ولكن ليقل : اللهم اغفر لى وتب علىّ » وقال الفضيل : « الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين » . وسمع أعرابى وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : « اللهم إن استغفارى مع إصرارى للؤم ، وإن تركى استغفارك مع علمى بسعة عفوك لعجز ، فكم تتحبب إلىّ بالنعم مع غناك عنى ، وكم أتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين » .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود[2] : « إن الاستغفار والعبادة والدعاء :

---

(١) ص ٢٢٠ من الأحياء .

(٢) فى مقدمته لكتاب « اسم الله الأعظم وطريق الوصول إلى الله » تأليف إبراهيم البطاوى واللواء محمد كمال عبد الحميد .

زاد الصالحين ومواريث المؤمنين ، وذلك شعارهم مصبحين وشعارهم ممسين وهم مع الله فى كل وقت وحين . كان ذلك شأن سلفنا الصالح ، فكانوا (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وكانوا (تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوفًا وطَمَعًا) وكانوا (قَلِيلًا من اللَّيْلِ ما يَهْجَعُون وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون) ».

ووصل ذلك بهم إلى النتيجة المحتومة التى لا يصل إليها إلا من سار على هذا الطريق وهى البذل والتضحية والفداء . لقد باعوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله واشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

وبيع النفوس والأموال فى سبيل الله إنما هو بذلها عن رضا : للأخ والجار والمواطن والمحتاج والفقير . . إنما هو بذلها فى سبيل الوطن الإسلامى والمجتمع المؤمن .

من أجل ذلك كان سلفنا الصالح (فى أَمْوالِهِمْ حَق مَعْلُوم لِلسَّائل والْمَحْرُوم) وكانوا كما وصفهم الله (قد أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فى صَلاتِهِم خَاشِعُونَ والَّذِينَ هُمْ عن اللَّغْو مُعْرِضُونَ . والَّذِينَ هُمْ للزَّكاةِ فَاعِلُونَ . والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلا على أَزْوَاجِهِمْ أو ما ملَكَت أَيْمانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فمن ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ العادون ، والَّذِين هُمْ لأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ والَّذِين

هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ولما كان ذلك شأن سلفنا رحمهم الله . بسبب الاستغفار والعبادة والدعاء ، بسبب هذه الأمور التى حققت لهم الربانية والتخلق بأخلاق الله عز وجل . لما كانوا كذلك دانت لهم الدنيا وخضعت لهم المعمورة واعتزوا بالإسلام واعتز الإسلام بهم فكانت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

كانوا عباداً لله بالليل وفرساناً بالنهار وصادقوا الله ورسوله . فحقق الله لهم ما وعدهم : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

وجاءت الدنيا . وجاء الترف . وجاءت فلسفة اليونان بإلحادها وأصنامها وثنيتها ومادتها وشهواتها . وعبرت السوفسطائية والأبيقورية هذه البيئة الطاهرة النقية فسرب إلى « الإيمان العملى الإيجابى » تيار خافت من « الإيمان النظرى السلبى » أخذ على مر الزمن يقوى ويزداد . ويعمل أعداء الإسلام على زيادته وانتشاره ، حتى وصلوا إلى ما أرادوا . وهو تغليب الجانب النظرى السلبى على الجانب العملى الإيجابى ، وأصبح الإيمان شكلاً من الأشكال ورسماً من الرسوم لا يثمر فاعلية ولا ينتج الإيجابية .

على أن الله تعالى لم يخل الأمة الإسلامية — بين الفينة والفينة — من داع إلى العودة إلى العمل وترك المراء . وكان من القمم الشامخة فى هذا الميدان : الإمام الغزالى رحمه الله عليه . لقد حاول إحياء المفاهيم الإسلامية . حاول أن يعيد إليها الروح التى قضى عليها المراء ، وحاول أن يبعث إليها النضرة التى فقدت بسبب فلسفة اليونان الوثنية الإلحادية . وحاول أن يرجع بالناس إلى الاستغفار . والعبادة والدعاء . وأن يوجههم إلى تلاوة القرآن والعمل به والتخلق بأخلاقه ، وأن يكونوا ربانيين .

ولقد وفق الغزالى كل التوفيق فى المنهج الذى اختطه . وفى النتائج التى

وضعها على قواعده . وترك الدنيا وفيها عبير زكى من آثاره وفيها جلوات روحية من فيض الله عليه ، وفيها توجيهات ملهمة لمن أراد سلوك الصراط المستقيم . . وكتابه « إحياء علوم الدين » إنما هو إشراقة ربانية ودعوة حارة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى الاستغفار والعبادة والدعاء .

ولا مناص من العودة إلى الاستغفار والعبادة والدعاء إذا أردنا حياة العزة وأردنا الحياة السعيدة ، وكل جهد يبذله أى مسلم فى سبيل العودة إلى سيرة سلفنا الصالح إنما هو جهد يسجل له فى سجل حسناته وهو جهد يتلقاه المخلصون بالغبطة والشكر .

إن الاستغفار سبب للنعيم الأخروى والنعيم الدنيوى . وكما أن الاستغفار سبب فى غفران الذنوب فإنه سبب فى فتح أبواب الرزق من السماء وفى إمداد الله للمستغفر بالأموال والبنين ، وفى جعل الله للمستغفر جنات وأنهاراً وقوة مطلقة . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم) .

والكتاب والسنة يرشدان إلى أن الاستغفار والعبادة والدعاء تجنى ثمارها سعادة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة . . إنها تفرج من كرب المكروب . وتزيل من حزن المحزون وتهدئ من غيظ المغيظ وقد ردت على يعقوب ابنه وبصره وأخرجت يوسف من السجن وأنقذت ذا النون من بطن الحوت . وكانت سبباً فى توبة آدم ويقول الله تعالى : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

ولكنها تفعل أكثر من ذلك : إنها تسخر العالم وأرضه لإرادة الإنسان

بإذن الله ، فهى تأتى بعرش ملكة سبأ قبل ارتداد الطرف ، بل يصل الإنسان بها إلى الذروة . . إنه يصل لأن يكون الله سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها . . وإذا سأل الله أجابه وإذا استعاذ به أعاذه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أخبر بكل هذا .

الربيّون

الربيون :

هم الفئة المتطورة أنصار كل رسول . الذين طرحوا موروثات قديمة ومعتقدات عفنة . . فاتبعوا الرسول الذى أنزل إليهم وعضدوه وناصروه وآزروه .

● هم حواريو عيسى . . وأصحاب محمد . . هم أنصار الله . . هم الربانيون .

● وقد سجل القرآن صفات هؤلاء الربانيين :

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا . . وما استكانوا » .

● كما سجل دعاءهم الذى كانوا به يجأرون :

(وَما كَانَ قَوْلَهُمْ إلا أَنْ قَالُوا : ربَّنا اغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَا . وإِسْرَافَنَا فى أَمْرِنَا . وثَبِّتْ أَقْدَامَنا وانْصُرْنا عَلى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

● كما سجل فى النهاية نهايتهم وإجابة دعواتهم عندما قال :

« فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . . بل لهم ما هو أسمى من ذلك الثواب ، لهم : حب الله لهم . لأنهم محسنون والله يحب المحسنين ، وحب الله لعبده ثواب لا بعده ثواب .

● (وكَأَيِّنْ من نَبِىٍّ قاتَلَ مَعَهُ ربِّيُّونَ كثير فما وهنوا لما

أصابهم فى سبيل الله . وما ضَعُفُوا وما اسْتكانُوا والله يحبُّ الصَّابِرين [١٤٦]) .

● (وَما كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أَنْ قَالُوا : ربَّنَا اغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَا وإسْرَافَنَا فى أمرنا وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنا على القوم الكافِرِينَ [١٤٧])

● (فآتاهم الله ثَوَابَ الدُّنْيا وحُسْن ثَواب الآخرة والله يحبُّ الْمُحْسِنِين [١٤٨]) .

كم من نبى قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون مؤمنون بدعوته فما وهنت نفوسهم لما أصابهم فى سبيل هذه الدعوة من البلاء والجراح ، وما وهنت قواهم عن الاستمرار فى الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء . . وهذا هو شأن المؤمن الذى ينافح عن عقيدة ويكافح فى سبيل الله والحق ، والله هو الحق المبين « يحب الصابرين » :

الذين لا تضعف نفوسهم ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين قناتهم ولا يستكينون أو يستسلمون لليأس ولا للبأس .

وبعد أن أبانت تلك الآيات الكريمات السمة الظاهرية لهؤلاء الربانيين كشفت عن داخليتهم ، وأدبهم فى الدعاء والطلب . . فهم يطلبون ، أوّل ما يطلبون ، يطلبون العفو والصفح ، يطلبون المغفرة والرضا قبل أن يطلبوا الثبات والنصر فى ميدان الوغى . .

إنهم لم يطلبوا عرضاً زائلاً ، ولا ثواباً ، ولا ثراءً ، حتى النصر يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه لسحق الباطل وسحق العدو .

إنهم لا يرجون إلا غفران الذنب . وتثبيت القدم فى موطن الهول عندما تتزلزل الأقدام . فمنحهم الله من لدنه كل ما يتمناه طلاب الدنيا ، وخير ما يتمناه طلاب الآخرة من مثوبة وجزاء « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » .

ولا جرم ، فقد أحسنوا الأدب مع الله . لما أحسنوا العمل « والله يحب المحسنين » .

أولو الألباب

المفكرون هم أولو الألباب الذين لا يعطلون عقولهم ولا يلغون تفكيرهم .

يبحثون ويستقرئون حتى يصلوا فى النهاية إلى الحقيقة وإلى الغاية . . فيؤمنوا بما وصلوا إليه إيماناً لا عن محاكاة وتقليد وإنما عن بحث ودراسة وتنقيب وعن مقارنة وفكر ونظر .

وإذا كانت جسومنا تستمد غذاءها المادى من نتاج الأرض ، فإن عقولنا تستمد غذاءها الروحى وقوامها العقيدى من النظر فى ملكوت السموات والأرض بعين العبرة والاستبصار .

تظهر لنا آيات الله فى الكون . . ومظاهر قدرته وظواهر ربانيته . . نرى خلقاً متكاملا يسير وفق سنن معين وسنن منظمة . . « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » الكل يسير وفق المخطط الإلهى ويجرى بقدرة الله حسب مشيئة الله ، وآنئذ يتراءى للناظر تفاهة البشرية وعجز الإنسان وقماءة الدنيا والتحقير حيال تلك المظاهر الكونية ، ولا يكون أمامه بعد ذلك الإيمان وبعد تلك النتائج إلا أن يخشع ويبتهل .

ويلجأ الإنسان بضعفه إلى الله فى قوته يطلب منه ويسأل . . يطلب العفو والمغفرة ويسأل الصفح والمرحمة . .

(إنَّ فى خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ واخْتِلاف اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ [١٩١] الَّذِين يَذْكرُونَ الله قِيامًا وقُعُودًا وعلى جُنوبهمْ ويَتفكرون فى خَلْقِ السَّمواتِ والْأَرْضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١٩٢] ربَّنا إنَّك منْ تُدْخِلِ النَّار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وما للظَّالِمِينَ من أَنْصَار [١٩٣] ربنا إنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا ينادى لِلإِيمان أَن آمِنُوا بربِّكُم فآمنَّا ، ربَّنَا فَاغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَا وكَفِّرْ عنَّا سيئاتِنَا وتوفَّنا مَعَ الأَبْرَار [١٩٤] ربَّنَا وآتِنَا ما وَعَدْتَنَا عَلى رُسُلِكَ ولا تُخْزِنَا يوْمَ القيامةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعاد [١٩٥] فاسْتَجَابَ لهم ربُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَل عامِلٍ منكُمْ منْ ذَكرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُمْ من بَعْضٍ فالَّذِين هاجَرُوا وأُخرِجُوا من دِيَارهم وَأُوذُوا فى سَبيلى وقَاتَلُوا وقُتِلوا لأُكَفِّرنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ولأُدْخِلنَّهُمْ جنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ ثوابًا من عِنْدِ اللهِ واللهُ عندهُ حُسْنُ الثَّوابِ [١٩٦]) .

يذكرون . . ويتفكرون :

«[١] إن ذكر الله تعالى لا يكفى فى الاهتداء إلى الآيات ولكن يشترط مع الذكر التفكير فيها فلابد من الجمع بين الذكر والفكر . . الفكر وحده — وإن كان مفيداً — لا تكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر . والذكر وإن أفاد فى الدنيا والآخرة . لا تكمل فائدته إلا بالفكر . فيا طوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار فى الآخرة . فتلك النعمة التى لا تفضلها نعمة ؛ لأنها هى التى يهون معها كل كرب ويسلس كل صعب وتعظم كل نعمة وتتضاءل كل نقمة . تلك اللذة التى تتجلى مع الذكر فى كل شىء فيكون فى عين ناظره جميلا وفى كل صوت فيكون فى سمع سامعه مطرباً ، . . فإذا تحوّل التجلى عن جمال الأكوان .. وتفكر الذاكر فى تقصيره ، من حيث هو إنسان ، عن شكر المنعم عليه بكل شىء يتمتع به وعن القيام بما يصل إليه استعداده عن معرفته استولى عليه سلطان الجلال فعلو همته فى طلب الكمال فينطلق لسانه بالدعاء والثناء : « ربنا ما خلقت هذا باطلا . . سبحانك » . يقول الذين يجمعون بين التذكر والتفكر معبرين عن نتيجة جمع الأمرين : ربنا ما خلقت هذا الذى نراه من العوالم السماوية والأرضية باطلا . ولا أبدعته وأتقنته عبثاً . . سبحانك وتنزيهاً لك عن الباطل والعبث بل كل خلقك حق مؤيد بالحكم » .

ويقول المرحوم الشيخ محمود شلتوت فى كتابه « من توجيهات الإسلام ، ص ١١٨» :

---

(١) ص ٢٩٩ جـ ٤ منار .

« وقد وضع الإسلام لتهذيب الروحى جملة من الوسائل تتلاقى كلها عند غرض واحد ؛ هو : تنقية الفطرة البشرية من معانى الشرك ؛ ونسيج الوثنية التى تتمسح فى الثقاب صورة التوحيد النقى الخالص . الذى فطر عليه الإنسان ، والذى يهذب منه الروح ؛ ويسمو بها فى إدارة الشئون . وتحصل وجوه السعادة العامة : ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[1].

ومن أولى هذه الوسائل . التفكير فى ملكوت السموات والأرض : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2].

وبهذا التفكير تعرف الآثار الدالة على جلالة مصدرها . وعلى كماله فى العلم والقدرة ، وعلى عموم رحمته وسلطانه . فتخضع النفس لإرادته .

---

(١) آية ١٣٨ من سورة البقرة .

(٢) الآيات من ٦ ـ ١١ من سورة ق .

وتنشط فى طاعته ، وتتوخى فى حياتها ما يرضيه ويقرّب إليه (وإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، إِنَّ فى خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والْفُلْكِ الّتى تَجْرِى فى البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ وما أَنْزَلَ اللهُ من السَّماءِ منْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبثَّ فِيها من كلِّ دابةٍ وتَصْرِيفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(١) .

وقد صحّ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حينما نزل قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » قال : « ويلٌ لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر » .

ومن هنا كان ذكر الله والتفكير فى آثار قدرته ، جناحين يرتفع بهما الإنسان عن حمأة المادة المظلمة إلى مشرق الروحية المضيئة . وقد قلّب القرآن فى آياته المتلوّة صحف هذا الكون أمام الإنسان . . دخل به نفسه . . وصعد به إلى السموات . . ونزل به إلى الأرض . . وطاف به الوديان والجبال ، وغاص به البحار . . ودعاه فى كل ذلك مراراً وتكراراً إلى النظر فى آياته العقلية والحسية ؛ وكثيراً ما أوحى القرآن أن هذه الدعوة سنة الله

---

(١) الآيات ١٦٣ — ١٦٤ من سورة البقرة .

فى كل رسالاته إلى خلقه ، عنى بها كل كتاب ، واهتم بها كل رسول : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، (شَرَعَ لَكُمْ من الدِّينِ ما وَصَّى به نوحًا والَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّين ولا تَتَفَرَّقوا فِيهِ) .

وبذلك ربط آخر العالم بأوله ، وربط دنياه بأخراه ، وجعل الكل وحدة تتجلى فيها وحدة الخالق ، وسلطانه القوىّ الرحيم : (وأَنَّهُ هُو أَضْحَكَ وَأَبْكَى وأَنَّهُ هُو أَمَاتَ وأَحْيَا ، وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَين الذَّكَرَ والأُنْثَى من نُطْفَةٍ إِذَا تُمنى ، وأَنَّ عليه النَّشأَةَ الأُخْرَى وأَنَّهُ هُو أَغْنَى وأَقْنَى ، وأنه هو ربُّ الشِّعْرى وأَنَّه أَهْلَكَ عادًا الأُولى وثمودَ فما أَبْقَى وقَوْمَ نوحٍ من قبلُ إِنهُمْ كانوا هُمْ أَظْلَمَ وأَطْغَى والمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا ما غشَّى ، فبأَىِّ آلاءِ ربِّك تَتَمارَى . . .) .

إنّ تقليب النظر فى الأرض وما حوت ، وفى السماء وما اشتملت ؛ أمر سهل ميسور ؛ تدعو إليه الأبصار ، وتلحُّ به العقول ، ولكن الذى جعله الله وسيلة للتهذيب الروحى ، هو : التفكير المصحوب بالتذكر ؛ فهو الذى يطبع فى النفس صور الجلال الذى يملأ النفس رهبة ، وصور

الجمال الذى يملأ النفس رغبة ، وبرهبة ما ينبغى أن يرهب ورغبة ما ينبغى أن يرغب ينحّى الإنسان عن نفسه صورة الرهبة الكاذبة التى ليس لها مصدر يخاف ، وصورة الرغبة الزائفة التى ليس لها مصدر يرجى ، ويترسم فى رغبته وهبته دلائل الحق التى تملأ نفسه بعظمة الخالق وحكمته . وبذلك يقتعد مكانته التى خلق لأجلها فى الحياة وهيئت له فى الآخرة .

من سورة يونس :

نفسيات

يشقق لنا القرآن دخائل النفس ومكنونات الضمير وأحاديث القلب وهمسات الوجدان . .

وتصل بنا آياته إلى الأعماق ، فتظهر ما خفى وتكشف عما استتر وترينا ألواناً عدة وقطاعات لنماذج نفسية . .

وها هى ذى آيات كريمة تصل بنا إلى أغوار النفس البشرية وتلقى الضوء على أبعادها فتكشف أقطارها :

نفوس يحاط بها فتفر إلى الملجأ وتفزع إلى الملاذ . . ثم إذا تبدد ما ران نضت عنها ثوب الخشوع . . وتنكرت وتنمرت . .

ونفوس لا تفتر ولا تمل من طلب السعة ودوام النعم وامتداد أسباب الخير وإذا ما مسها شر أو ضر ارتدت إلى دياجير الظلام وآضت إلى أغوار اليأس وعادت إلى ضباب القنوط . .

ونفوس ، غير هذى وتلك ، مشرقة نيرة ، مع الله فى كل آن ، دعاء وشكر فى النعمة والنقمة . ودعاء وشكر عند المنح والمنع ، ودعاء وشكر عند الرفد والرفض . لم يلوث صفاء قلوبهم حرمان . ولم يبطرهم جزيل سيب أو كبير عطاء . .

يصور القرآن كل هذى الحالات النفسية وينير لنا جوانبها ويبين دخائلها فيقول . ﴿ وإذا مسّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجَنْبِهِ أَوْ قاعدًا

أو قائمًا فلمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّه ، مَرَّ كأَنْ لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسَّه)[1].

(وإذا أذقنا النَّاس رحْمَةً من بعْدِ ضَرّاءَ مسّتهم إذَا لَهُمْ مَكْرٌ فى آياتِنَا ، قُل اللهُ أَسْرَعُ مكرًا إنَّ رُسُلَنَا يكْتُبون ما تمكرون [٢١] هو الَّذِى يُسَيِّركم فى البَرِّ والبَحْرِ حتَّى إذا كُنتم فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طَيِّبةٍ وفَرِحُوا بها جَاءَتْها ريح عاصف وجاءهم الموْجُ من كلِّ مَكانٍ . وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِين له الدِّين لئن أَنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشَّاكِرِينَ [٢٢] . فلمَّا أَنْجَاهُمْ إذا هُمْ يبغون فى الأَرضِ بغَيْرِ الحقِّ)[2].

سفينة تسرى . . وتجرى . . تسرى بمن فيها وتجرى بهم تدفعها ريح طيبة تبعث البهجة والفرح فى النفوس . . وسرعان ما تلبد الجو واكفهر . . وغضبت السماء . وأظلمت الدنيا . وعوت الرياح . . واهتزت السفينة فى يد الأمواج التى أحدقت بها من كل مكان . . وتبين لركاب السفينة نهايتهم المحتومة . . ولاحت لهم الخاتمة

---

(١) من آية ١٢ من سورة يونس .

(٢) من آية ٢٣ من سورة يونس .

ففزعوا إلى الله ، داعين إياه ، مخلصين له فى التضرع والدعاء . إذ لا ملجأ منه إلا إليه وتضرعوا إليه بكيانهم وعاهدوه قائلين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، وحقق رجاءهم ودعاءهم فأنجاهم . .

وما إن وطئت أقدامهم الأرض .. وأحسوا الأمان حتى عادوا سيرتهم الأولى ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، ولم يفوا بالعهد ولم يقوموا بالشكر ، بل بغوا وطغوا وأفسدوا وجاروا . .

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكم من ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ تَدْعُونه تضرُّعًا وخُفْيةً لئِنْ أَنْجَانَا من هذه لنكونن من الشَّاكِرِينَ [٦٣] قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ منها ومن كُلِّ كَرْبٍ ثمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُون [٦٤])(١)

(وإِذا مَسَّكُم الضُّرُّ فى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تدعُونَ إلا إِيَّاهُ فلما نَجَّاكُمْ إلى البرِّ أَعْرَضْتُمْ وكان الإنسانُ كفورًا [٦٧] أَفأَمِنْتُم أَن يَخْسِفَ بكم جَانِبَ البرِّ أَو يُرْسِل عليكم حاصبًا ثم لا تَجِدُوا لكم وكيلا [٦٨] أَمْ أَمِنتُم أَن يُعيدَكُمْ فيه تارة أُخرَى فَيُرسِلَ عليكم قاصِفًا من الرِّيحِ فيُغْرِقَكُمْ بما كَفَرْتُمْ)(٢) . . .

---

(١) آية ٦٣ ، ٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) من سورة الإسراء .

(وما بِكُمْ من نِعْمَة فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إذا مسَّكُمُ الضُّرُّ فإلَيْهِ تَجْأَرُونَ [٥٣] ثُمَّ إذَا كَشَفَ الضُّرَّ عنكم إذا فَرِيقٌ منكُمْ بربِّهم يُشْرِكُونَ [٥٤])(١).

(ولَئِنْ أَذَقْنَا الإنْسَانَ منَّا رحْمَةً ثم نَزَعْناها منه إنَّه ليئوس كَفُورٌ ولئن أذقناه نَعْمَاءَ بعد ضرَّاءَ مَسَّته ليقولَنَّ ذهَبَ السَّيئاتُ عنِّى إنَّه لفَرِح فَخُور [١٠] إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وعَمِلوا الصَّالِحات أُولئِكَ لهم مَغْفِرَةٌ وأَجْر كَبِير)(٢).

الإنسان طلبته النعيم ومبتغاه الإكثار من الخير يزنو إلى تمتيع نفسه وحسه وجسده بألوان اللذائذ وأسباب النعيم ، فإذا ما ناله الخير استبشر وسعد وتهلل وشاع الرضا والحبور فى نفسه ؛ أما إذا مسه — فضلا عن أن يتمكن منه — ضرّ أو شر اسودت الدنيا فى عينيه وملأ اليأس قلبه ؛ فهو يريد الحياة ضوءاً متلألئاً وسناء مشعاً لا يشوبه ضعف أو خفوت ويرغب فى كل شىء طامعاً أن يخلد له كل شىء . . وإلا فاليأس يملأ عليه الشعاب ويسد المسالك . . فإذا ما عفت نعمة الله على آثار النقمة ، ومكن الله له بتحقيق أمله واستجابة رجائه انتفخ وانتفش زاعماً أن ما يرتع فيه من خصب وخير إنما مرده إلى جهوده الشخصية وجهاده الفردى وأنه استحق ما حصل عليه بفضل عمله وكده وجهده وجده ويغلو متخيلاً أن مكاسبه ستدوم

---

(١) من سورة النحل .

(٢) من سورة هود .

ومنجزاته ستبقى ؛ ثم يسدر فى تغاليه مؤكداً أن سعيد الدنيا هو سعيد الآخرة وأنه سيضم إلى ما معه فى الدنيا ، الحسنى عندما يرجع إلى ربه ، والكرامة وعلو القدر يوم الحساب . .

(لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ من دُعَاءِ الخيْرِ وإِنْ مسَّهُ الشَّرُّ فيئُوس قَنُوطٌ [٤٩] ولَئِنْ أَذَقْناهُ رحمةً منَّا مِنْ بَعْدِ ضرَّاءَ مسَّتْهُ ليقولَنَّ هذا لى وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائمةً ولئن رُجِعْتُ إلى رَبِّى إن لى عنده لَلْحُسْنى . . . فلنُنَبِّئَنَّ الَّذِين كفروا بما عملوا ولنُذيقَنَّهُم من عذابٍ غليظٍ. [٥٠] وإذا أَنْعَمْنَا على الإِنْسَانِ أَعْرَضَ ونأَى بِجانِبِه وإذا مسَّهُ الشر فذو دعاءٍ عريضٍ[٥١])[١].

(فأَمَّا الإِنْسَانُ إذا ما ابْتَلاهُ ربُّه فأَكْرَمَهُ ونعَّمهُ فيقولُ ربِّى أَكْرَمنِ وأَما إِذَا ما ابْتَلاه فَقَدَرَ عليه رِزْقَهُ فيقولُ ربِّى أَهَانَنِ [١٦])[٢] .

يقول الإمام محمد عبده[٣] :

« وأنت ترى أن أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله فى هذه

---

(١) آيات ٤٩ — ٥١ من سورة فصلت .

(٢) آية ١٦ من سورة الفجر .

(٣) فى تفسيره لجزء عم ص ٨٢ .

الآية الكريمة ، فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم فى أمن من عقاب الله ولا يعرفون شيئاً من شرعه يمنعهم عملا مما تسوق إليه شهواتهم وإنما يذكرون الله بألسنتهم ولا يعرفون له سلطاناً على قلوبهم . .

والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عند أنفسهم . فهم لا يبالون بما يفعلون فإذا ذكروا الله فإنما هى حروف وأصوات لا تمتاز فى منفعتها عن أصوات بقية العجماوات .

تلك حالة الإنسان الذى لم يمنحه الله بعقل سليم ودين صحيح . أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل والدين فأولئك الذين ترتقى إلى مثل حالهم مرتبة الإنسان فيفارقون تلك الغرائز الحيوانية الأولى ويعلون إلى المقام الذى لا تذهلهم فيه القوة ولا يشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم . ومعنى هذه الآية يميل إلى قوله تعالى :

(إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ منوعًا إلا المصلِّينَ) . . .

دعوات أولى العزم

سليمان :

(ولقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وأَلْقَيْنَا على كُرسيِّه جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ [٣٤] قال ربِّ اغْفِرْ لى وهَبْ لِى مُلكًا لا يَنْبَغِى لِأَحَد منْ بَعْدِى إنَّكَ أَنْتَ الوهَّابُ [٣٥] فَسَخَّرْنَا له الرِّيحَ تَجْرِى بأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ [٣٩] والشَّياطِينَ كلَّ بنَّاءٍ وغوَّاصٍ [٣٧] وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فى الأَصْفَاد [٣٨] هذا عَطَاؤُنا فامْنُنْ أَو أَمْسِكْ بغَيْرِ حِسَابٍ [٣٩] وإنَّ لهُ عِنْدَنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآبٍ [٤٠])[1] .

أيوب :

(واذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إذْ نَادَى ربَّهُ أَنِّى مَسَّنِى الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ [٤١] اركُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغتَسَل باردٌ

(١) الآيات من سورة ص .

وشراب [٤٢] وَوَهَبْنَا لهُ أَهْلَهُ ومثلَهم معهم رحْمَةً منّا وذكْرَى لأُولى الأَلْبَاب [٤٣] وخذْ بيدك ضِغْثًا فاضْربْ بِهِ ولا تَحْنَثْ إنَّا وَجَدْناه صابرًا نِعْمَ العَبْدُ إنَّه أَوَّاب] ٤٤]) [١] . . .

يونس :

(وذا النُّون إذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عليه فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّى كنت من الظَّالِمِينَ [٨٧] فاسْتَجَبْنَا لهُ ونَجَّيناهُ من الغَمِّ وكذلِكَ نُنْجِى المؤْمِنِينَ [٨٨]) [٢] . . .

زكريا :

(وَزَكَرِيَّا إذْ نَادَى ربَّهُ ربِّ لا تَذَرْنِى فَرْدًا وأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ (٨٩) فاسْتَجَبْنا لهُ وَوَهَبْنَا له يَحْيَى وأَصْلَحْنَا لهُ زَوْجَه إنَّهُمْ كانُوا يُسَارِعُونَ فى الخَيْرَاتِ ويُدعونَنَا رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خَاشِعِين [٩٠]) [٣] . . .

---

(١) الآيات من سورة ص .
(٢) الآيات من سورة الأنبياء .
(٣) الآيات من سورة الأنبياء .

ترّهات وأكاذيب نسجها كثير من المغالين والمغرضين حول قصة سليمان وفتنة الله له ، وتغالى البعض وانحدر آخرون . . وخالوا . . وتخيلوا وألصقوا بنبى الله سليمان ما هو منه براء. وخير ما قيل حول فتنة سليمان وإنابته هو قول المرحوم عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء[١]» : «وعندى وجه لم يذكره أحد من العلماء ، وهو أن كرسى داود إنما هو كرسى سليمان ، لأن داود كان يرشح سليمان للملك والجلوس على كرسيه . وقد قام أبشالوم بن داود وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسى الذى هو فى الواقع كرسى سليمان وهرب منه داود إلى شرق الأردن وسرح الجيوش لمقاتلته وباشر أبشالوم الحرب بنفسه فقتل أبشالوم ، وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم وتضرع إلى الله وسأله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده . .

لا شك أن سليمان فى تلك البرهة كان يعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه : أن الكرسى الملكى أفلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله فى سن الصبا من زهو بذلك الكرسى الذى ينتظره والملك العريض الذى سيكون بيده صولجانه ، فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسى وتسرب إلى نفسه دبيب اليأس . فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التى تعد على المقربين ذنوباً ، وهى غير ذنوب ، وأناب إليه ضارعاً أن يهب له ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود . وأغدق عليه العطاء وسخر له قوى عدة تأتمر بأمره وتحقق رغباته » .

وأيوب نادى ربه أن يزيل ضره ويكشف ألمه وعذاب نفسه .

---

(١) ص ٣٣٠ .

فرحمه ربه واستجاب له وكشف ما أمضّه . .

ويونس كذلك استجاب الله له فأزال غمه وأزاح همه ونجاه مما آلم نفسه وأقض مضجعه . .

وقد أبان القرآن المعالم والركائز التى بها تحققت ابتهالات هؤلاء الرسل الدعاة . . فباور تلك الأسس فى قوله :(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ ويدْعونَنَا رَغَبًا ورهبًا . وكانُوا لنا خاشِعِينَ) .

دعاء الكافر

« (١) الدعاء : صلة روحية بين العبد وبارئه ، واتجاه إلى الرب القادر ، واستعانة بالمولى العزيز وابتهال من المخلوق الضعيف إلى الخالق القوى يرجوه المغفرة والعفو ويطلب منه الرحمة والنصر ، ويسأله التوفيق والسداد .

ويصعد الدعاء الحار يحمل ضراعة المؤمن ويحمل فى الوقت نفسه دلائل الإيمان ودلائل العبودية ودلائل الخضوع والانقياد .

والإيمان قطب الرحى وركيزة الاستجابة ، ومن تعرّى عن الإيمان وكفر بالألوهية والعبودية فمن يدعو ؟ وأنّى يستجاب له ؟ !

هو إن دعا فإنما يدعو صنما لا يضر ولا ينفع أو حجراً لا يسمع ولا يشفع . . وإن جأر بطلب فإنما يتوجه به إلى ضعيف لا يملك من أمره شيئاً ، فضلا عن أن يتصرف فى أمور الآخرين .

يدعو أوهاماً أو أوثاناً من دون الله ، فكيف يستجيب لدعائه الله ؟

فلا بدع إن كان دعاء الكافرين فى ضلال . ولا عجب إذ كان

---

(١) من كتاب « الأمثال فى القرآن » لمحمود بن الشريف .

عمل الكافر ضياعاً وضلالاً أن يكون دعاؤه كذلك هباء وخسراناً .

وقد سجل الفرقان الحكيم ذلك عندما قال فى سورة الرعد : (وما دعاءُ الكافرين إلا فى ضلال) .

ومثلت آيات من هذه السورة الكريمة عدم جدوى دعاء الكافر عندما قالت : (له دَعْوةُ الحقِّ[1] والَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونه لا يَسْتَجِيبُونَ لهُمْ بشَىءٍ إلا كَبَاسِطِ. [2] كَفَّيْهِ إلى الماءِ ليَبْلُغَ فاهُ وما هُوَ بِبَالِغِهِ ، وما دُعَاءُ الكافِرِينَ إلا فى ضَلال) .

ولقد بلغ القرآن ذروة الدقة فى تعبيره عن دعاء الكافر ونتيجته ، فقد عبر عنها بالضلال : ضلال من حيث الأساس إذ الأساس كفر وضلال ولن تكون نتيجة الكفر والضلال إلا على شاكلته ، فقد تعرّى الكافر عن الإيمان والإيمانُ ركيزة الاستجابة . . وضلال من حيث الطريق : ضل الدعاء طريقه إذ الكافر يسأل غير الله فكيف يحقق الله دعاء من لا يؤمن بالله .

---

(١) له دعوة الحق : أنه وحده الذى يستحق أن يدعى .

(٢) كباسط : كماد .

دعاء نوح

فى ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم ورد ذكر نبى الله نوح عليه السلام ، وقد عمر نوح عمراً طويلا ملأه بالدعوة إلى الله .

وكما هو الحال غالباً كان سراة القوم وأثرياؤهم هم المعوّقين لدعوته المناهضين لها ، المكذبين بها ، واستبعدوا أن يكون فرد منهم لا ثراء له ولا ثروة يأتى لهدايتهم وإرشادهم . فلا جرم أن كذبوه . . وحزّ ذلك فى نفسه فابتهل إلى ربه :

(قال ربِّ إِنِّى دعَوْتُ قَوْمى ليلًا ونهارًا [٥] فَلَمْ يزِدْهُمْ دُعائى إِلَّا فِرارًا [٦] وإِنِّى كلَّما دَعوْتُهُمْ لِتغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فى آذانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا [٧])[١] .

فروا ، ونأوا ، وأصروا ، وعصوا ، واتبعوا سراة القوم وأثرياءهم المكذبين بالدعوة المناهضين للداعى .

(قال نوحٌ : ربِّ إِنَّهُم عَصَوْنِى واتَّبعوا مَنْ لَمْ يزِدْهُ مالُهُ ووَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا [٢١])[٢] .

---

(١) من سورة نوح .

(٢) من سورة نوح .

وعلى الرغم من سلبيتهم ، ومن استهزائهم فقد كتل جهوده خلال مئات السنين التى عاشها فى قومه يدعو . . ويجادل . . وينصح ، وهم ينأون عنه وينهون ولم ييأس ولم يقنط . . واستمسك ببقية من أمل لعلهم ينتصحون بنصحه الذى يغاديهم به أو يتعظون بوعظه الذى يراوحهم به ، ولم يكن منهم فى النهاية إلا أن قالوا له :

(يا نوحُ قد جادَلْتَنَا فأَكْثَرْتَ جِدالَنَا فأْتِنَا بما تَعِدُنا إنْ كُنْتَ من الصَّادِقِين [٣٢]) (١) .

ولما لم يعد فى قوس الصبر منزع توجه إلى ربه بالدعاء عليهم فقال :

(ربِّ لا تَذَرْ على الأَرْضِ من الكافرين ديَّارا [٢٦] إنَّكَ إنْ تَذرْهُم يُضِلُّوا عبادك ولا يلِدُوا إلا فاجرا كفَّارا [٢٧]) (٢)

وأمره الله أن يصنع السفينة لتحمله وأهله بعيداً عن الطوفان الذى سيغرق مكذبيه ، ولما أتمها وحملتها المياه بمافيها نادى نوح ابنه وقال : اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . . وامتنع الابن عن مصاحبة أبيه ، وغضب البحر ، وتطاول موجه ، وبكت السماء . . ورأى نوح مصير ابنه ففزع إلى ربه :

(ونادى نوحٌ ربَّه فقال : ربِّ إنَّ ابْنى مِنْ أَهْلى ، وإنَّ

---

(١) من سورة هود .

(٢) من سورة نوح .

وعْدكَ الحقُّ وأَنْتَ أَحْكَمُ الحاكِمِين [٤٥] قال : يا نوحُ إِنَّه ليْس من أَهْلِكَ ، إِنَّه عملٌ غيْرُ صالح ، فَلَا تَسْأَلْن ما ليْس لك به عِلمٌ ، إِنى أَعِظُكَ أَن تكونَ من الْجَاهلين [٤٦])[١] .

وإزاء هذا العتب الإلهى اعتذر نوح وطلب من مولاه العفو وسأله المغفرة على ما فرط منه والرحمة به :

(قال : ربِّ إِنِّى أَعُوذُ بكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ما لَيْس لِى بِهِ عِلْمٌ وإِلَّا تَغْفِرْ لى وتَرْحمْنِى أَكُنْ مِن الْخَاسِرِينَ [٤٧])[٢] .

---

(١) من سورة هود .

(٢) من سورة هود .

من سورة يوسف :

دعاء يوسف

(قال : ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليّ مما يَدْعونَنى إليْهِ وإلَّا تَصْرِفْ عنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وأَكُنْ من الْجَاهِلِين [٣٣] فاسْتَجاب لهُ ربُّه . فصرَفَ عنه كَيْدهنَّ إنَّهُ هو السَّميع الْعَلِيمُ [٣٤]) .

(ربِّ قد آتَيْتَنِى من الْمُلْكِ وعَلَّمْتَنِى من تَأْوِيل الأَحَادِيثِ فاطِرَ السَّمَواتِ والأَرْضِ أنت وليِّى فى الدُّنْيَا والآخرةِ توفَّنِى مُسْلِما وَأَلْحِقْنِى بالصَّالِحِينَ [١٠١]) .

* * *

(١) .. فى القصص القرآنى صور للصراع الجنسى إطارها العفة وظلالها النقاء ، وألوانها الطهر والإيمان ، قدمها القرآن ، لتبين المثل الأعلى لقوة الإيمان وصدق اليقين ، وضبط النفس ، وغلبة العقل على العاطفة . وقصة « يوسف وامرأة العزيز » نموذج من نماذج ذلك القصص القرآنى

(١) من كتاب « الإسلام والحياة الجنسية » لمحمود بن الشريف .

الهادى الهادف تضع أمامنا لوحات حية للشرف موحية بالطهر نابضة بالعفة . . نرى فيها شباباً فائراً ثائراً واشتهاء متمكناً . . نرى الجو المهأ . . والرغبة المندلعة .. والجوع الجنسى . نرى العاطفة المتأججة تطول بألسنتها ويندلع فحيحها فى وجه العقل الصامد . . وتندلع الألسنة ويشتد أوارها . . وتتطاول لذعاتها ولا يطامن العقل من جبهته ولا يحنى هامته أمامها . . نرى امرأة العزيز تعدّ العدّة وتستخدم أسلحتها وأساليبها تبدى زينتها وتظهر مفاتنها . . تتفنن وتتحايل ويوسف يستعصم ويقاوم » .

وأحدثت عفته ضجة ورجة . وبخاصة فى المجتمع النسائى بالمدينة . .

والتجأ يوسف إلى ربه مستغيثاً به ، مستعيذاً من المكائد والمؤامرات التى حيكت له حتى يذعن ويسلم ويرضخ ويخضع . .

تضرّع ، وهو النبى المعصوم ، وسأل ربه أن يصرف عنه السوء ويبطل الكيد ويحميه ؛ يحمى نقاءه وطهارته ، ويحميه من الأجواء التى أحاطت به ؛ من الحرية . . الحرية الملوثة المملوءة بالأنفاس الخبيثة المحمومة تتنفسها نسوة بهرهن جماله وسحرهن بهاؤه وأعجزهن تمنعه وحصانته ، تتآمرن عليه للإيقاع به : النسوة صديقات امرأة العزيز يراودنه ويردنه لأنفسهن ، وامرأة العزيز تقول : (لقد راوَدْتُه عَنْ نَفْسِه فاسْتَعْصَمَ ، ولَئِنْ لم يَفْعل ما آمرُه ليُسْجنَنَّ وليَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ) .

تضرع إلى ربه أن يقيه شر ذلك كله ، طالباً السجن ، فالسجن عنده خير من الخطيئة وازل ، فيه يحمى طهره ويحوس نقاءه ويعتقل عفته ويصونها من أن تتلوث .. « .. رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » .

واستجاب له ربه وفرج كربه وحماه وصرف عنه الكيد عندما أبعده

عنهن فى السجن . فسكنت المؤامرات وسكتت الفتنة وانتصرت العفة وصفاء الصحيفة ونقاء الظاهر والباطن .

وكان ختام دعاء يوسف :

(ربِّ قد آتَيْتَنِى من الْمُلْكِ ، وعلَّمْتَنِى من تَأْوِيلِ الأَحادِيث ، فَاطِرَ السَّمواتِ والأَرْضِ أَنت وليِّى فى الدُّنْيا والآخِرَةِ تَوفَّنِى مُسْلماً وأَلحِقنى بالصالِحِينَ) .

دعاء موسى

سور عدة . وآيات عديدة من الفرقان الحكيم تناولت قصة نبى الله موسى عليه السلام .

فآيات من سورة القصص تحدثت عن مولده ورضاعته وزواجه من ابنة « شعيب » .

وآيات من سورة الأعراف تحدثت عن معجزاته . وآيات من سورة يونس تناولت مبعثه ورسالته وعلمه وموقف فرعون وقومه من تلك الدعوة « الموسوية » . وكذلك فى سورة طه والشعراء وغافر والزخرف .

ومن خلال هذه الآيات تبدو آيات نابضة بالدعاء : دعاء موسى وأخيه هارون وتوجههما والسحرة .

فموسى بعد أن اختاره الله للرسالة وقال له : « وأنا اخترتك » . أرسله إلى فرعون وقال : (اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى) ، أمره بالذهاب إلى

فرعون؛ ليقنعه ويرشده ويهديه، ويلور له حالة فرعون وسياسته ونهايته فى كلمتين : إنه طغى . . ودار بخلد موسى طغيان فرعون بتجاوزه الكفر إلى ادعائه الألوهية ورأى، لكى يجابه ذلك الطغيان ، أن يتسلح بأسباب وأساليب تكفل له الغلبة وصرع الباطل وهزيمة الباغى الطاغى فسأل ربه :

(قال ربِّ اشْرحْ لى صدْرى [٢٥] ويَسِّرْ لى أَمْرى [٢٦] واحْلُلْ عُقْدةً مِنْ لِسَانِى [٢٧] يَفقهوا قوْلى [٢٨] واجْعَل لِى وَزِيرًا من أَهْلِى [٢٩] هَارون أخِى [٣٠] اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى [٣١] وأَشْرِكْهُ فى أَمْرِى [٣٢] كىْ نُسبِّحَكَ كَثِيرًا [٣٣] ونَذْكُرَكَ كَثِيرًا [٣٤] إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بصيرًا [٣٥] ، قال: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى [٣٦])[1] .

وحقق الله له ما طلبه ، (ولقد آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وجعَلْنَا معَهُ أَخاه هارون وزيرًا)[2] ، (اذْهبْ أَنْتَ وَأَخوكَ بآياتى ولَا تَنِيَا فِى ذِكْرى [٤٢] اذْهَبَا إلى فِرْعوْنَ إِنَّه طَغَى [٤٣] فقولا له قولًا لَيِّنًا لعلَّه يتذكَّرُ أَو يَخْشَى [٤٤] قالا ربَّنا إننا

---

(١) من سورة طه .

(٢) آية ٣٥ من سورة الفرقان .

نخافُ أَنْ يفرُط علَيْنَا أَوْأَنْ يَطْغَى [٤٥] قال : لا تخافا إننى معَكُمَا أَسْمعُ وأَرى [٤٦] فأْتِياهُ فقولَا إِنَّا رسُولَا ربِّكَ)[1] .

ولما اطمأن موسى على موقفه تجاه مجابهة فرعون سارت فى نفسه مخاوف قديمة بالنسبة لقوم فرعون أبداها لربه قائلا :

(قال : ربِّ إِنِّى قَتلْتُ منْهُمْ نَفسًا فأَخافُ أَنْ يَقْتُلون وأَخِى هارُونُ هو أَفْصَحُ منِّى لسانًا فأَرْسِلْهُ معىَ رِدْءًا يُصدِّقُنى إِنِّى أَخافُ أَنْ يُكَذِّبونِ [٣٤] قال سنَشُدُّ عَضُدكَ بِأَخِيكَ ونَجْعَل لكما سُلطانًا فلا يصِلون إِلَيْكُما)[2].

وطمأنهما المولى سبحانه وتعالى بعد أن أقسم لهما بآياته أنه ناصرهما وبعد أن أبان لهما خاتمة المطاف وهى الغلبة والنصر (بِآياتِنَا أَنْتُما ومِنِ اتبعكُمَا الْغَالِبُون) .

(قال : ربِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغْفِرْ لِى ، فغَفَر لهُ إِنَّهُ هُو الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [١٧]) .

(وقال مُوسى : ربَّنَا إِنَّكَ آتَيْت فِرْعوْنَ وملأَهُ زينةً

( ) الآيات من سورة طه .

(٢) من سورة القصص .

وأَمْوالًا فى الْحياةِ الدُّنْيا ربَّنَا ليضلُّوا عن سَبِيلِكَ ، ربَّنا اطْمِسْ على أَمْوالِهِمْ واشْدُدْ على قُلوبِهم .فلا يُؤْمِنُوا حتى يَرَوُا الْعذاب الأَليم [٨٨] قال : قَدْ أُجِيبتْ دعْوتُكُمَا ، فاسْتَقِيما ولا تَتَّبعانِّ سبيل الَّذِين لَا يعْلَمُونَ [٨٩])[١] .

دعاء قوم موسى

(قال مُوسى : يا قوْم إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ فَعلَيْهِ توَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِين [٨٤] .

(فَقَالُوا : على الله تَوكَّلنَا ، ربَّنَا لا تجعلْنَا فِتْنَةً لِلْقوْمِ الظَّالِمِين) [٨٥] ونَجِّنَا برَحْمَتِكَ مِنَ القَوم الْكَافِرِين [٨٦])[٢] .

دعاء امرأة فرعون

(. . . وضَرب الله مثلًا للَّذِين آمنُوا امْرأَةَ فِرْعوْنَ إِذْ قالتْ ربِّ ابْنِ لِي عِندَك بيْتا فى الجنَّةِ ، ونجِّنى مِنْ

---

(١) من سورة يونس .

(٢) الآيات من سورة يونس .

فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّنى من القَوْمِ الظَّالِمِين)[١] .

* * *

« [٢] كل فرد مسئول عن ذاتيته وعقيدته وسلوكه الفردى ، وهذ المبدأ الإسلامى قرره القرآن بادئ ذى بدء عندما عرض لنا شرائح الإيمان الذى نبت وسط أشواك الكفر وحسك الشرك ، وشرائح للكفر الذى ولد فى محيط العقيدة السليمة الصحيحة . . فامرأة نوح خانت زوجها الرسول الصالح خيانة عقيدة لا خيانة فحشاء ، وظاهرت أعداءه وناصرت شانئيه وأسهمت مع خصومه فى السخرية والاستهزاء به .

وامرأة لوط كانت تدل قوم لوط على ضيوف لوط وهى تعلم صنيعهم مع هؤلاء الضيوف ! !

لم تشفع هذه الآصرة التى تربط كل واحدة من هاتين المرأتين بزوجها فكان مسيرهما إلى النار ومصيرهما أسوأ مصير ، فلا شفاعة ولا استثناء فى شأن الكفر والإيمان .

وامرأة فرعون التى فرت إلى ربها وهى تتقلب فى أعطاف النعيم الحسى ، لم تعش ناظريها أبهة الملك ، ومظاهر العظمة وألوان الترف الذى أعد لها وأضفى عليها باعتبارها المرأة الأولى فى المملكة الفرعونية .

نبذت ذلك كله وطرحته وراءها ظهرياً وولت وجهها شطر السماء تسأل من فى السماء أن ينجيها من فرعون وعمله ومن شره وأشره ومن عقيدته وحاشيته » .

فاستجاب لها ربها وجعلها نموذجاً للمرأة المؤمنة المتطهرة . ومثلا لعل النساء فى دنيا النساء يحتذينه فيوصلهن إلى الإيمان والتطهر .

---

(١) آية ١١ من سورة التحريم .

(٢) من كتاب « الأمثال فى القرآن » لمحمود بن الشريف .

دعاء السحرة

(قالوا إنَّا إلى ربِّنَا مُنْقَلِبونَ [١٢٥] وما تَنْقِمُ منَّا إلَّا أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنَا لما جاءتْنَا ربَّنَا أفْرِغْ علَيْنَا صبْرًا وتوفَّنَا مُسْلِمين [١٢٦]) (١) .

(٢) « أرسل فرعون فى مدائن مصر (حاشرين) يأتونه بالسحرة — وكان للسحر منزلة عظيمة فى أرض مصر فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة كانوا مدلين بأنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف فى الأعيان والعيون وعرضوا لفرعون بالأجر ينالونه جزاء قيامهم بالسحر ، فوعدهم بالأجر الجزيل والزلفى لديه ، وأى زلفى أعظم من زلفى قوم يؤيدون ربوبيته ويثبتون عرش (ألوهيته) ! !

راود السحرة موسى هل يلقون سحرهم أو يلقى هو سحره أولاً ؟ وكان الجمع حافلا وفى يوم الزينة ، ويظن أنه يوم وفاء النيل ، فإنه كان أعظم أعيادهم ، فقال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . وكان عتادهم العصى والحبال . فألقوها فامتلأ المكان حيات وثعابين . وخيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى .

فى تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعلية القوم ، وأيقنوا أن السحرة قد نجحوا وأن موسى لا يمكنه أن يأتى بشىء أعظم من سحرهم إذ كل

---

(١) من سورة الأعراف .

(٢) ص ١٨٨ من كتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار .

ما فى يده عصا ، فإذا قلبت حية فهى حية واحدة من مئات وآلاف قد غصّ بها رحب الساحة التى هم فيها .

وفى تلك اللحظة أيضاً هال موسى أمر تلك الحيات وأوجس فى نفسه خيفة فأمره الله أن يلقى عصاه ، فإذا هى حية تسعى وإذا هى تبتلع حيات السحرة وتتلقفها . فوقع الحق وبطل سحر السحرة . ودهش آل فرعون والملأ من قومه وعلم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك ، وإنما هى القوة الإلهية صنعت هذا فخروا ساجدين لله تعالى وآمنوا برب موسى وهارون مفضلين ذلك على الأجر الذى كانوا يرجونه من فرعون مستهينين بجزائه الذى سيوقعه بهم » .

وقد تحدّث القرآن عن موقف هؤلاء السحرة فى أكثر من موضع ، تحدّث عنه فى سورة الأعراف وفى سورة الشعراء وفى سورة طه مصوّراً هؤلاء الذين عرفوا الحق فاتبعوه وأعلنوا كلمة الإيمان صريحة فى وجه الكفر لم يغرهم وعد ولم يثنهم وعيد إذ قد حاول الطاغية فرعون — وهو فى حيرته ودهشته بعد هزيمته — أن يستميلهم باللين وأن يثنيهم عن عزمهم بالحيلة فثبتوا ، ثم تجنى عليهم وهددهم فصمدوا ونفذ فيهم عقابه فتلقوه هاتفين لله سائلين إياه أن يلهمهم الصبر وأن يمنحهم الثبات على الإيمان والوفاة على الإسلام .

وتلك شريحة قرآنية من سورة طه تعرض تلك القصة الإيمانية لهؤلاء السحرة ، فتقول :

(. . . قَالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى [٦٥] قال بلْ أَلْقُوا فإِذَا حِبَالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ من سِحْرِهم أَنَّها تَسْعى [٦٦] فَأَوْجس فى نَفسِه خِيفةً

مُوسى [٦٧] قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْت الأَعْلَى [٦٨] وَأَلْقِ ما فى يمِينِك تَلْقَفْ ماصنَعُوا إِنَّما صنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ولايُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [٦٩] فأُلْقِى السَّحْرَةُ سُجَّدا قالوا آمنَّا بربِّ هارُونَ ومُوسى [٧٠] قال آمنتم له قَبْلَ أَنْ آذَنَ لكم إِنَّهُ لكبيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السحْر ؛ فلأُقَطِّعَنْ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُمْ من خِلَاف ولأُصلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ ولتعلَمنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عذَابًا وأَبْقَى [٧١] قالوا لن نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنَا من البَيِّنات والَّذِى فطَرَنَا فاقْضِ ما أَنْت قاض إِنما تقْضِى هذه الحياة الدُّنيا [٧٢] إِنا آمنا بربِّنا ليغفِرَ لنا خَطَايانا وما أَكْرَهْتَنَا عليه من السِّحْر والله خيرٌ وأَبْقَى [٧٣] إِنَّهُ من يأْتِ ربَّهُ مُجرِمًا فإِنَّ لهُ جَهَنَّم لا يموتُ فيها ولا يحيا [٧٤] ومن يأْتِهِ مُؤْمِنًا قدعمِل الصَّالِحَاتِ فأُولئك لهم الدَّرجاتُ العُلَى [٧٥] جنَّاتُ عدْنٍ تَجْرِى من تَحْتِها الأَنْهَار خَالِدِين فيها وذَلِكَ جَزَاءُ من تزكَّى [٧٦]) .

اسألوا الله من فضله

واسْأَلُوا الله من فَضْله[١].
ادْعُوا ربَّكُمْ تَضرُّعًا وخُفْيةً[٢].
فادْعُوه مخلصين له الدِّين[٣].
فأَخَذْنَاهُمْ بالبأْساءِ والضَّراءِ لعلهم يتَضرّعون[٤].
وقال ربكم ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لكم[٥].
الَّذِين آمنوا وتطمئنُّ قُلُوبُهُمْ بذِكر اللهِ، أَلَا بذكر الله تطمئنُّ القُلُوبُ[٦].
وادْعُوهُ خَوْفًا وطَمعًا إنَّ رحْمةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنينَ[٧].

• • •

(١) آية ٣٢ من سورة النساء.
(٢) آية ٥٥ من سورة الأعراف.
(٣) آية ٦٥ من سورة غافر.
(٤) آية ٤٢ من سورة الأنعام.
(٥) آية ٦٠ من سورة غافر.
(٦) آية ٢٨ من سورة الرعد.
(٧) آية ٥٦ من سورة الأعراف.

دعوة إلهية إلى الدعاء . . وإغراء ربانى به وحضّ عليه .

والدعاء ترجمة تنقل أمل نفس ومشاعر يقين وابتهالات قلب إلى مقلب القلوب . ترجمة لا بألفاظ معينة ولا بكلمات خاصة ، ولا بصيغة محددة ، فقد يكون همسات شفاه خافتة ، أو حديث نفس صامتة ، أو صلوات فؤاد . . . أو رجوات قلب أو خفقات ، أو نبضات وقد يكون ابتهالات ملتهبة أو عبارات حارة أو عبرات وشئون تتساقط من عينى راغب أو راهب تحمل معانى الندم . . والتوبة . . . والرجوع . .

وقد يكون دنقات شعورية ، تنطلق حسب الدوافع الخاصة لكل داع وبما تيسر له من الألفاظ وبما أفاض الله عليه من إلهامات وما أفاء من نفحات . .

الكل يدعو بما يترجم ترجمة صادقة عن داخليته ورغائبه وعن رجواته ومتطلعاته . . الكل يدعو بطريقته الخاصة وعلى الكيفية التى تتفق وحالته ، سمع عمر بن الخطاب رجلا يقول فى دعائه . . « اللهم اجعلنى من الأقلين » فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ قال سمعت القرآن يقول « وقليل من عبادى الشكور » » وسمعته يقول « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم » فقلت داعياً ربى : « اللهم اجعلنى من هؤلاء الأقلين » فقال له عمر : « ادع بما تعرف » .

على أن الدعاء الجامع الشامل إنما هو « القرآن » .

القرآن هو الصورة المثلى للدعاء . . الدعاء الهادى الموجه الذى يضيء المسالك وينير القلوب ، ويعمر الوجدان ويغمر الداعى بفيض من أمن ورضا وهدى ، ويرشد لما فيه صلاح الدين وخير الدنيا وسعادة الأولى وثواب الأخرى .

فمن زكانة الرأى أن نتوسل إلى الله بكلمات الله . . وقرآنه . . وكتابه . . فتلاوته عبادة ، وترداد لما فيه من أدعية وتوسلات توسل بها الرسل ودعا بها

المؤمنون ، بل إن لتالى القرآن أجراً على كل حرف « قال الرسول عليه السلام : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

وقال الصحابة للرسول فى حديث آخر : أو لو كان بفهم أو بغير فهم ؟ فقال : « ولو كان بفهم أو بغير فهم » .

وفى أدعية الرسول المأثورة هدى نبوى وسمو محمدىّ وهداية قدسية وتبيان للمعالم . . وزاد يتزود به من يريد أن يسير على السنن وعلى المحجة البيضاء ، ومن يريد أن يغترف من المنهل العذب ويرتوى من المورد الصافى السائغ .

على أن الأدعية المحمدية مرتبطة بالقرآن ، ومأخوذة منه أحياناً ، فها هو ذا محمد صلى الله عليه وسلم كان إذا همّ بركوب راحلة ، كبر ثلاثاً ، وقال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

والرسول فى دعائه ذاك إنما يطبق قول الله سبحانه (. . . وجعلَ لَكُمْ مِن الفُلْكِ والأَنْعَامِ ماتَرْكَبُون لتسْتَوُوا على ظُهُورِهِ ثم تَذْكُرُوا نِعْمَةَ ربِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُم عليْه وتقولوا : سُبْحان الَّذِى سخَّرَ لَنَا هَذَا وما كُنَّا له مقرنين . وإنَّا إلى ربِّنا لمُنْقَلبون)[1] .

والدعاء علاج به تستريح النفس القلقة ، وتطمئن ، وتركن إلى بارئها ، تبلور ألمها فى كلمة ، ضارعة ، تسأله فيها العون والنجاح والنجاة ،

---

(١) آية ١٣ ، ١٤ من سورة الزخرف .

أو فى زفرة تلف الداعى بسكينة وتغمره بأمن وطمأنينة ، أو فى ذكر قلبى يصعد مع الأنفاس إلى السماء يسأل من فى السماء زاداً من أمن وإيمان .

أو تسبيح يزيل ما ران على النفس من أثقال المادة وأوضار الذنوب ورواسب المجرحات والآثام .

أو ذكر يبدد الغواية ويذيب الغشاوة من على البصائر والقلوب حتى ترى نور الله بنور الله . والدعاء طريق يسلكه العباد ، ليوصلهم إلى الله . . وإلى الربانية . . وإلى التخلق بأخلاق القرآن : علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يقول « اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك ، وإبراهيم خليلك ، وموسى نبيك ونجيك ، وعيسى كلمتك وروحك ، وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود ، وفرقان محمد — صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين — وبكل وحى أوحيته أو قضاء قضيته ، أو سائل أعطيته ، أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته .

وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم

وأسألك باسمك الذى ثبت به أرزاق العباد

وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت

وأسألك باسمك الذى وضعته على السموات فاستقلت

وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست

وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك

وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين

وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم . .

أن ترزقنى القرآن ، والعلم به ، وتخلطه بلحمى ودمى . وسمعى وبصرى ، وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم

الراحمين » والمؤمن دائماً فى حاجة إلى سيده : يلجأ إليه فى الرخاء والشدة ، فى العسر واليسر وفى المنشط والمكره ، إبان الشدائد يلتجئ إليه ، ويسأله ، ويتوجه إلى ساحته ورحابه طالباً العون وإزالة الكرب وإزاحة الخطب وتبديد الشدائد وتفريج العقد ، وعند اليسر يشكره ويثنى عليه طالباً دوام الأمن والسلامة والأمان .

وهكذا شأن المؤمن يلازم الدعاء فيمسى داعياً عابداً ويصبح شاكراً حامداً . . الله أمامه فى كل وقت وآن .

قال صلى الله عليه وسلم « من سرّه أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكرب ، فليكثر الدعاء فى الرخاء » .

والإعداد النفسى والإيقان القلبى والتيقن من الإجابة له دخل فى تحقيق الرجاء وإجابة الدعاء فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول « ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة » .

ولا يستعظم المستكثر لجرمه عظم ما ارتكب ولا ييأس من استجابة الله لدعائه . قال سفيان بن عيينة : « لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس إذ قال :

(قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) (١) .

ولابد للدعاء من تمهيد له وتقديم ، من هذا أن يستفتح بذكر الله ، فلا يبدأ مباشرة بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول « سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » وقال أبو سليمان الدارانى : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأله حاجته ثم يختم

---

(١) آية ١٤ ، ١٥ من سورة الأعراف .

بالصلاة على النبي فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

وقال عليه السلام : « إذا سألتم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة علىّ فإن الله تعالى أكرم من يُسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويرد الأخرى » . وعلى الداعى أن لا يتعجل الإجابة ، قال الرسول عليه السلام «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لى » فتأخيرها قد يكون لعلة تخفى على السائل الراجى . .

فقد يكون فى تعجيلها تغيير فى نفسية الداعى أو تبديل فى مجرى حياته ، أو انحرافه ، أو بطره ، وقد يكون فى تحقيقها ضرر قد غاب عن الداعى وقت دعائه . على أن الله سبحانه إذا لم يجبها فإنما يعوّض صاحبها مثلها أو خيراً منها . . . فقد يصرف عنه سوءاً أو يدفع ضراً أو يزيل شراً فى عاجل أمره أو يدخر له أجراً أو مثوبة فى الآخرة .

وقد أعلن عن هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « ما على وجه الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا أتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

فقال رجل من القوم : إذاً نكثر ؟ قال : « الله أكثر » .

من الدعاء المستجاب

دعوة المظلوم :

هى دعوة حارة صادقة صادرة عن نفس حطمتها يد الغشم وضعضعتها سطوات الباطل ، وصفعتها لطمات العنجهية والاستعلاء . . فسعت إلى رحاب القوى القادر وإلى باب العادل القاهر تلتمس العون وتطلب النصفة والنصر .

وقد احتفى الإسلام « الإنسانى » بهذه النفس المظلومة وتبنى ابتهالها ، قال الرسول : « دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب » .

دعوة المظلوم تستقبلها السماء بترحاب . . ودعوة الظالم تغلق دونها الأبواب فليس كل دعاء بمستجاب !

دعوة المظلوم يرعاها الله القوى ، ودعوة الظالم يأباها من حرّم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً .

دعوة الظالم هى دعوة القهر ، والأشر ، والبطر . .

ودعوة المظلوم هى دعوة الحق ، فهى « لله » له دعوة الحق . . يدافع عن المظلوم الداعى ، ويقتص من الظالم الباغى ، كما جاء فى الحديث القدسى : « يقول الله عز وجل للمظلوم : وعزتى وجلالى لأنصفنك ولو بعد حين » ، ويقول الرسول صلوات الله عليه : خمس دعوات لا ترد : دعوة الحاج حتى يصدر (١) ودعوة الغازى حتى يرجع ، ودعوة المظلوم حتى ينتصر ، ودعوة المريض حتى يبرأ ، ودعوة الأخ لأخيه بالغيب » . .

---

(١) يصدر : يعود ويرجع .

دعاء محمد

الدعاء عبادة ، كما قال محمد « الدعاء مخ العبادة » .

فلا جرم أن تحظى تلك العبادة بما هى أهل له فى حياة محمد . .

وها نحن أولاء نسير وراء خفقات الدعاء المحمدى فى يوم من الأيام المحمدية.

ونستعرض بعض الأدعية المأثورة التى دعا بها رسول الهدى ونبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته ممسياً وهو فى بيت خالتى « ميمونة » فقام يصلى من الليل . فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال :

« اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى وتلمّ بها شعثى ، وترد بها الفتن عنى ، وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل سوء .

اللهم أعطنى إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء .

اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا كافى الأمور وشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور ، اللهم ما قصر عنه رأيى وضعف عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى

من خير وعدته أحداً من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك ، فإنى أرغب إليك فيه وأسألكه يا رب العالمين .

اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، حرباً لأعدائك وسلماً لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلقك ، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك .

اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة . وهذا الجهد وعليك التكلان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد . سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له . اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً فى قبرى ونوراً فى سمعى ونوراً فى بصرى ونوراً فى شعرى ونوراً فى بشرى ونوراً فى لحمى ونوراً فى دمى ونوراً فى عظامى ونوراً من بين يدى ونوراً من خلفى . اللهم زدنى نوراً وأعطنى نوراً واجعل لى نوراً » .

وعن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى : أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » .

وعن عائشة قالت : « كان يكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » . وقالت : « افتقدت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فظلبته فإذا هو راكع أو ساجد — يقول : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » . وكان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء

قدير : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد[١] منك الجد[٢] » .

كان الرسول إذا خرج من بيته يقول : « بسم الله توكلت على الله : اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل علىّ » .

وإذا سافر يقول : « اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب » .

وإذا رجع من سفره يقول : « آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » .

وكان يقول إذا قدّم إليه الطعام « اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وقنا عذاب النار ، بسم الله » .

وإذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذى كفانا وأروانا » ، « الحمد لله الذى منّ علينا وهدانا والذى أشبعنا وأروانا ، وكل الإحسان أتانا » .

وإذا قام من المجلس قال : « اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولاتجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » .

وإذا دخل السوق قال : « باسم الله ، اللهم إنى أسألك خير هذه

---

(١) الجد : الحظ .

(٢) الجد : الغنى .

السوق ، وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة » .

وإذا رأى الباكورة من الثمر قال : اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا » ، ثم يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر .

وإذا رأى شيئاً يحبه قال : « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » ، وإذا رأى ما يكره قال : « الحمد لله على كل حال » .

وقالت أم سلمة كان أكثر دعائه صلى الله عليه وسلم : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .

وقال أبو أمامة رضى الله عنه دعا الرسول صلى الله عليه وسلم بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً ، فقلت : يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً ؟ فقال : « ألا أدلكم ما يجمع ذلك كله ؟ تقول : اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنت المستعان وعليك البلاغ ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » .

وكان يقول عند مضجعه : « اللهم أنى أعوذ بوجهك الكريم ،

وبكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته . اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم ، اللهم لا يهزم جندك ولا يخلف وعدك . ولا ينفع ذا الجد منك الجد سبحانك وبحمدك » .

وكان إذا أصبح قال : «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين » .

وساوس النفس . . وشرور الخلق

(قل أعوذُ بربِّ الْفَلَق [١] من شرِّ ما خَلَقَ [٢] ومن شرِّ غاسِقٍ إذا وقَب [٣] ومن شرِّ النَّفَّاثَاتِ فى الْعُقَدِ [٤] ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسَد [٥]) .

* * *

(قل أعوذُ بربِّ النَّاس [١] ملِكِ النَّاس [٢] إلهِ النَّاسِ [٣] من شر الوسْواسِ الخنَّاسِ [٤] الَّذِى يُوَسْوِسُ فى صُدورِ النَّاسِ [٥] من الْجِنَّةِ والنَّاسِ [٦]) . . .

* * *

الله رب الكون والخلق ، خلق الظواهر الطبيعية . . وأجرى الأفلاك والأجرام السماوية وفق نظام معين وناموس محكم ؛ ظلام وعتمة . . ثم صبح وإشراق . . ليل دامس . . ثم نهار مضيء . وقمر وضيء يظهر ويختفى ، ونجوم تبدو وتتحرك ثم تحتجب وتستتر « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » . .

وقد أمرنا هذا الخالق القادر أن نلجأ إليه وحده دون سواه . . وأن

ندعوه ؛ ليحمينا من شر الخلق ويقينا من أذى مخاوقاته ومن نفوسهم المظلمة . . كما يقينا من شر الليل إذا أظلم وأطبق بعتمته فأضل السالكين . . ومن شر النفاثات فى العقد ، وهم جماعات النمامين المقطعين روابط الألفة وعلاقات المودة بسعيهم ومؤامراتهم ونمائمهم . ومن شر الحاسدين الذين أكل الحسد قلوبهم ، فأعماهم عن الالتجاء إلى الله وتمنى مثل ما منحه الله للغير من نعيم وعز . . وأمن وخير .

وسورة الناس : كما قال الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لها « هى أمر إلهى بالاستعاذة بالله والالتجاء إليه والاستعانة به على دفع شر عظيم . . شرّ قد يسهو الناس عنه فلا يبالون به ؛ لأنه يأتيهم من ناحية شهواتهم وتلتبس به قواهم من حيث لا يشعرون . فيقعون فى سيئات الأعمال وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً . .

ولما كان من الخفاء بحيث تضعف قوة الإنسان عن دفعه بسهولة احتاج إلى الاستعانة عليه بالله واللياذ بجواره منه ، وذلك الشر هو الوسواس [1] » . .

الوسواس : الذى يلقى أحاديث السوء فى النفس ، ويوسوس لها بالمفاسد والآثام والشرور ، فيتجه بها وجهة سوداء شريرة بعيدة عن الإخلاص والإشراق والصفاء . . وذلك الوسواس : خناس : يرجع إلى النفس فى حالات ضعفها فيتمكن منها بوساطة أحاديثه الكواذب وأباطيله المسمومة الخفية ، وأراجيفه التى يوسوس بها فى الصدور والقلوب . .

* * *

قال عقبة بن عامر إن الرسول عليه السلام قال له : « ألا أخبرك بأفضل

---

(١) ص ١٨٤ من كتابه « تفسير جزء عم » .

ما تعوذ به المتعوذ ؟ . .

قلت : بلى . . قال : «المعوذتين» . .

* * *

وكما كانت فاتحة الكتاب دعاء . . فها هى ذى خاتمته دعاء كذلك . . .

ولعل هناك سراً إلهياً فى أن تكون فاتحة الكتاب دعاء . وخاتمة الكتاب دعاء. وما بين الفاتحة والخاتمة : عقيدة ، وعبادة ، ودعاء . . .

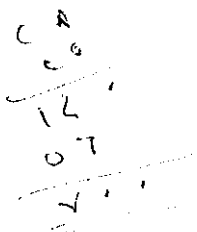

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ١٨٢٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١١٨١-٨	ISBN

١ / ٨٣ / ١٨٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٤٠٣٣٣٤/٣